المجتمع والدولة في الإسلام

المجتمع ونشأة الدولة - من الجاهلية إلى الإسلام
البداية - دولة المدينة - المجتمع الإسلامي
التحول الجديد - الأمة والدولة
الأمة الإسلامية - الدولة الإسلامية

المجتمع ونشأة الدولة

الدولة ظاهرة ضرورية للاجتماع البشرى، تحتل الذروة على الدوام وفى كل العصور فى بنائه الاجتماعى، فحينما يتكامل بناء اجتماعى تنشأ الدولةلتنظم شئون الأفراد وتحكم علاقاتهم بعضهم ببعض وعلاقاتهم بالمجتمعات الأخرى المماثلة.

والدولة لا تنشأ فى فراغ وإنما تقوم لتباشر حقها فى السيادة وما تفرضه لها السيادة من ممارسة السلطة على جميع الهيئات والأفراد الخاضعين لها، وهى بهذا المعنى إرادة تعلو بحكم القانون على كلّ إرادة أخرى ملزمة لكل الأفراد القاطنين فى أرضها لذلك نصف الدولة بأنها نظام قانونى .

إلّا أن لهذا النظام الذى نصفه بأنه قانونى بحث جانبه الفلسفى، فسلطة الدولة والقانون الذى يكفل لها ممارسة السلطة يستمدان قوتهما فى الدولة الحديثة من التوفيق بين الرغبات والمطالب المتناقضة للرعايا والهيئات التى تحكمها، وإن قامت الدولة فى عصور من التاريخ وما زالت إلى زمننا هذا أداةً لتحقيق إرادة القابضين على السلطة وإن كانت مناقضة لرغبات المجموع إلّا أن مثل هذه الدولة لا تمثل المثل السياسية للمجموع، فالأصل فى قيام الدولة الحديثة هو العمل على إشباع مطالب المجموع وحمايته وتنظيمه بما يكفل الأمن والرخاء لكل الأفراد والهيئات، وبما يضمن العدالة والمساواة بين الجميع وهى بغية الدولة التى يقوم عليها كيانها الاجتماعى فى كل العصور .

وحتى نتبين طبيعة الدولة لابدّ وأن نتبين طبيعة المجتمع الذى قامت به وعليه ، وحتى نتبين طبيعة المجتمع لابدّ وأن نتبين طبيعة القوانين التى تحكمه سواء كان مصدرها العرف أو العقيدة أو التنظيم الاجتماعى ، وقد يسبق العرف أو العقيدة أو التنظيم الاجتماعى ، قيام الدولة ولكن التنظيم الاجتماعى غالباً ما يقوم على القوانين التى تسنها الدولة لحماية تنظيمها السياسى مما يجعل التشريع بعيداً عن إرادة المجموع ، فإذا كانت القوانين ممثلةً لإرادة المجموع فإنها غالبًا ماتقوم لحماية التنظيم الاجتماعى والمبادئ الأخلاقية التى يدين بها المجموع ، قبل أن تكون لحماية التنظيم السياسى للدولة ، وتصبح حماية التنظيم السياسى لاحقةً على حماية التنظيم الاجتماعى ويحقق المجتمع غايته من قيام الدولة التى ينشدها لحمايته ، ويصبح كيان الدولة مماثلًا لكيان المجتمع ، فإيمان الناس بالقوانين التى تسنّها الدولة يستمدّ قوته من التماثل بين ما يقع فى تفكيرهم وما تلزمهم الدولة بطاعته فطالما كانت القوانين مماثلةً لنوع تفكيرهم كانت هيمنتها عليهم أكبر والخروج عليها أقل ،

فقوانين حمورابى تستمدّ قوتها من أصلها الإلهى كشريعة موسى على السواء، فبقدر إيمان الناس بآلهة حمورابى بقدر إيمانهم بشجاعته وطاعتهم لشريعته، وبقدر ما يكون الإيمان بما جاء به موسى من عند الله بقدر ما تكون الطاعة لأوامره ونواهيه، ولم يكن الفراعنة طغاةً بقدر ما كانوا آلهةً مطاعين يستمدون إرادتهم من إيمان الجماعة بهم، وكان سولون يفخر بقوانينه لأنها حققت التماثل بين الفقير والغنى أو بمعنى آخر التوافق بين ما هو كائن وما يجب أن يكون.

والأصل فى طبيعة الدولة بوصفها نظاماً قانونياً أنها تحقق التماثل والاتساق بينها وبين رعاياها أو بينها وبين المجتمع الذى تديره، فإذا لم تحقق التماثل والاتساق كان فى وضعها بعض الشذوذ كأن تقوم لإيثار طبقة على آخرى أو لحماية طبقة تستأثر بالسلطة والثروة وتستعبد بقية الرعية لمصلحة هذه الطبقة الأثيرة.

وينبع التماثل والاتساق فى طبيعة الدولة من تماثلها مع المجتمع الذى تديره وتمثيلها له، بمعنى أنها تقوم لحماية تقاليده وعقائده وكيانه الاجتماعى والسياسى.

والأصل فى قيام الدولة وجود جماعة إنسانية، فهذه الجماعة الإنسانية إذ يتكامل كيانها الاجتماعى سرعان ما تخضع لنوع من التنظيم السياسى وتتحول إلى جماعة سياسية وعادةً ما يقوم هذا التنظيم السياسى على القهر أو الرضا ولكنه فى الحالتين يذعن للسلطة التى تحكم الجماعة وتدير شئونها، فإذا قامت على القهر التبس الحكم بالاستبداد وإذا قامت على الرضا لم يعد الحكم إدارة شئون المحكومين وتنظيمها.

إلّا أن هذا لا يعنى قيام الدولة ولا يعدو كونه نظاماً للحكم، فالحكومة ظاهرة أصيلة فى الجماعة السياسية لأنها ممارسة السلطة، ولا نتصور قيام جماعة سياسية دون حكومة تمارس سلطة الحكم فيها، أما الدولة فصورة من صور الجماعة السياسية، فشيخ القبيلة يمارس سلطة الحكم فى القبيلة وله من السلطات والحقوق ما يفصلها الشاعر العربى بقوله:

لـك المـربـاع فينـا والصفـايـا وحكمـك والنشيـطة والفضـول

ولكن هذا لا يعنى قيام الدولة، فللدولة أركانها الأساسية التى تقوم عليها وهى الوطن والمواطن والحكومة، فذا قامت الدولة وهى كيان سياسى مستقل تمثلت حق السيادة ومن هذا الحق تستمد الحكومة حقها فى السلطة، فالدولة شخصية معنوية باقية دائمة طالما ظلت تتمتع بحقوق السيادة فلا تخضع لأية سلطة خارجية أخرى.

أما الحكومة فصورة مادية تتمثل فى الأعضاء الذين يمارسون السلطة، ولا يعنى إدماج سلطة الحكم فى شخص الحاكم - كما يذهب بعض الفقهاء - زوال الدولة، فالدولة قائمة فى الحالين سواء تمثل الحاكم سلطة الدولة أو تم الفصل بين مصدر السلطة والحكومة، فإن زوال

الحاكم لا يعنى زوال الدولة أو فناءها ، فالسلطة لا تنشأ فى فراغ وإنما تقوم دائماً على القوى المادية للجماعة السياسية التى تدين لها ، والحاكم مهما تمثل السلطة فإن غيره سيحتل مكانه عند زواله أما شخصية الدولة فباقية مستمرة ما بقيت أركانها سليمة ، فإذا اعتدى غاز على أرض دولة واحتلها وأضافها إلى أملاكه فقدت الدولة ركنين من أركانها الأساسية وهما الوطن والإرادة الحرة المستقلة ، وإذا تشتت الشعب لم يعُد للدولة كيان ما وإن كان من المحتمل أن تقوم مكانها دولة أخرى بقيام جماعة سياسية جديدة .

ولا يعنى قيام جماعة سياسية جديدة فناء الجماعة القديمة أو زوالها وإنما يعنى أن الجماعة القديمة قد فقدت كيانها السياسى وسلمت بالسلطة لجماعة جديدة سرعان ما تدمج الجماعة القديمة فى إطارها ، فسقوط القيصرية فى روسيا لا يعنى زوال الدولة وإنما يعنى زوال شكل من أشكال الدولة وحلول شكل آخر محله ممثلاً للجماعة الشيوعية التى استولت على الحكم وغدت مصدر السلطة تمارسها على اتباعها وعلى غير اتباعها ممن لا يدينون بالشيوعية ، ولا يعنى اختفاء الإرادة الشعبية أو ضمورها اختفاء الدولة كما يذهب بعض الفقهاء الذين يؤكدون الفصل بين السيادة والسلطة شرطاً لقيام الدولة أو يرون أن السلطة يجب أن تقوم على الإرادة العامة أو إرادة المجموع حتى تقوم الدولة ، فالدولة قائمة سواء تمثل الحاكم حقى السيادة والسلطة كما حدث فى ألمانيا النازية أو كان الحاكم فرداً مطلق الإرادة ولا يهدم كيان الدولة غير خضوعها لسلطة خارجية .

وقد تتغير طبيعة المجتمع فتقوم الدولة على مثلٍ وتقاليد جديدة تنبع من طبيعة المجتمع الجديد فحين تحولت الإمبراطورية الرومانية من الوثنية إلى المسيحية على يد قسطنطين لم يتغير الشكل العام للدولة ، وبقيت الدولة قائمةً ولكن طبيعة المجتمع هى التى تغيرت باعتناقه للمسيحية ، وقيام مثل وتقاليد جديدة غير المثل والتقاليد الوثنية القديمة .

وليست الدولة شرطاً لقيام الجماعة السياسية ، ولكن طبيعة الجماعة السياسية هى التى تقتضى قيام الدولة ، فالدولة كما يرى ، هارولد لاسكى « هى ذروة البناء الاجتماعى الحديث » ونضيف إلى ذلك أنهاذروة البناء الاجتماعى فى كل عصر ، فهى - كما يقول - « وسيلة لتنظيم سلوك الناس وأى تأمل لطبيعتها يجد أنها وسيلة لفرض قواعد من السلوك يجب أن تنتظم حياة الناس جميعاً وفقاً لما تسنه من قوانين واجبة الطاعة ، ومن حقها أن تلجأ إلى الإكراه لتكفل طاعتها » .

وتؤكد بعض النظريات السياسية عدم حاجة الجماعة الإنسانية إلى الدولة وترى الماركسية أنها وسيلة للقمع والإكراه لصالح البرجوازية المعاصرة كما كانت وسيلةً للقمع والإكراه لسيطرة الإقطاع فى المجتمع الإقطاعى ، فإذا كان ثمة ضرورة للدولة فهى دولة

البروليتاريا، التى تقوم على دكتاتورية الطبقة العاملة أو ما تسميها البروليتاريا، وهى صورة موقوتة بالقضاء على كل آثار البرجوازية وعلى كل نزعة طبقية قد تنتهى بالسيطرة على الجماعة الإنسانية واستغلالها لصالحها.

والمجتمع الإنسانى هو الأساس فى الاجتماع البشرى وليست الدولة، فإذا بدت ضرورتها للمجتمع فإن أخلاقيات المجتمع وسلوكه وعلاقات أفراده بعضها ببعض هى التى تحتمها، وعلى هذا الأساس أقامت الماركسية «نظرية فناء الدولة» فحين يصفو المجتمع من شوائب الأثرة والاستغلال ويعيش الناس فى سلام دائم ومساواة حقيقية وتزول حوافز المنفعة وتكتمل حاجيات الفرد الاقتصادية تصبح الدولة وليس للمجتمع حاجة إليها فتذوى على حدّ قول «لينين» وتخلى مكانها لمجتمع حرّ من الجمعيات الاختيارية تقوم لإنجاز الأعمال العامة.

فالدولة إذن وسيلة وليست غاية فى ذاتها، وحين تقوم تتحدد بالتالى الغاية التى تقوم لها أو الهدف من قيامها، وتتحدد تلك الغاية أو ذلك الهدف فى الفكر الذى يحكم عقول من أقاموها، وبمعنى أكثر تحديداً ما يحكم أصحابها من مثل ومعتقدات وعلاقات إنسانية أو اجتماعية تتحوّل على يد المشرع إلى قوانين ونظم هى ما يعبر عنها أحياناً أو غالباً بدستور الدولة، وهو ما يحقق الخير العام فى نظر أصحابه وهو خير الكافة. الذين يكونون الجماعة السياسية للدولة. وإن لم تخل الدولة أحياناً وفى فترات عديدة فى التاريخ من قيامها على فكرة الخير الخاص أو خير جماعة معينة هى التى تحكم لصالحها وتسخر الجماعة السياسية أو الجماعة التى تحكمها لتحقيق ما تبتغيه من خير لنفسها أو تحقيق مصلحتها الذاتية، وقد اقترن الخير العام بالخير الخاص إذ لا يتسنى أن يكون الخير الخاص وحده هو غاية الدولة وهدفها فى العصر الحديث - وإلا كان مصيرها الانهيار والفشل.

وحين تحولت الدولة الرومانية إلى المسيحية ارتبطت بتحقيق الخير العام للمسيحية حتى غدت المسيحية على مدى الزمن وهى التى تحكم العالم الرومانى الفسيح، وأصبحت دولة لاهوتية، تقوم على تحقيق الخير الخاص لطبقة رجال الدين والخير العام للمجتمع المسيحى كما يراه رجال الدين، وإن لم يؤثر عن التعاليم المسيحية ما يربط بين الدين والدولة كما لا يؤثر عن الشريعة الإسلامية مثل ذلك.

فإذا كانت الشريعة الإسلامية لا تتضمن ما يوجب قيام الدولة ولم تعرض لتنظيم معين يمكن أن تقوم عليه ولم يؤثر عن النبى ﷺ أنه أوصى بذلك أو بما يشبه ذلك، ولم يستخلف من يقوم بعده على شئون الجماعة الإسلامية، فلأن الدولة ليست شرطاً لقيام الجماعة الإسلامية فالأساس الذى يقوم عليه المجتمع الإسلامى أوّلاً وأخيراً هو الشريعة الإسلامية

فإذا نفذت الشريعة دون ما سلطة تصونها وترعاها وتدير المجتمع على أساسها، لم تكن هناك حاجة للدولة، وأصبح أمر الناس شورى بينهم ولعل هذا ما عناه الرسول «أنتم أعلم بشئون دنياكم» ويعنى أن إدارتهم لشئون حياتهم هى من حقهم وحدهم فهم أعرف بها من غيرهم.

والمسئولية فى الإسلام أو فيما جاءت به الشريعة ليست مسئولية الضمير أو القانون - كما قلنا من قبل - وإنما هى مسئولية الإنسان أمام الله وهى مسئولية مباشرة لا تقتضى رسوماً أو وساطة بين العبد وخالقه، فإذا اقتضت لأمر ما ما يحميها أو يصونها فإن المجتمع قادر على ذلك، ما لم يعجز عن ذلك، فإذا عجز أصبحت السلطة واجبة وضرورة، وتبدو الحاجة إلى الدولة التى تحكم السلوك العام للأفراد والمجتمع ملحة. فالدولة فى المجتمع الطبيعى الحر الخالى من نوازع الشر والأثرة ليست واجبة وليست ضرورة وإنما تبدو حتماً إذا اختلت المقاييس الاجتماعية والأخلاقية بين الناس، وقد جاء الإسلام بشريعة لو أطاعها الناس ما كانت هناك ضرورة إلى حدٍّ أو قصاص أو زاجرة من الزواجر، فإذا أقيمت الحدود أو شرع القصاص وكانت الزواجر، فلإقامة حدود الله ولحماية الشريعة التى تنظم حياة المسلمين على الخير، وبدت السلطة، إذا ما عجز المجتمع فى ذاته عن حمايتها واجبة وضرورة وتصبح الدولة أمراً واقعاً وحتماً، وتقوم الدولة حينذاك وتغدو ضرورة لحماية التنظيم الاجتماعى والمبادئ الأخلاقية التى جاء بها الإسلام قبل أن تكون ضرورة لحماية التنظيم السياسى للدولة، وإن غدت - ولما يتخط الإسلام صبحه المشرق - أداة لحماية التنظيم السياسى للدولة قبل أن تكون أداة لحماية التنظيم الاجتماعى والمبادئ الأخلاقية للإسلام.

وقد قامت الدولة الإسلامية كظاهرة ضرورية وليست طبيعية لقيام المجتمع الإسلامى وتأثرت بنموه وتطوره على مدى التاريخ كما تأثرت بالأنظمة السياسية المجاورة لها والسابقة عليها.

وحين نبحث عن نظرية للدولة الإسلامية على ضوء الشريعة، علينا أن نفرق أوّلا بين ما يعرف بالنظرية السياسية، والمذهب السياسى، وكلاهما ضرب من ضروب المعرفة السياسية التى أجملها خبراء اليونسكو فى بحوثهم المنشورة عام ١٩٥٠، فى أربعة ضروب هى:

النظرية السياسية، والنظم السياسية، والأحزاب والرأى العام، والعلاقات الدولية.

وقد يتعذر الفصل بين النظرية السياسية والمذهب السياسى إذ يرتبطان معاً بدراسة الظواهر السياسية وتسجيل أحداثها ولكن النظرية تبقى مرتبطةً بالظاهرة على أساس من

التفسير الموضوعى للعلاقات المتجانسة، بينما لا يقف المذهب السياسى عند حدّ الظاهرة السياسية وتفسير علاقاتها المتجانسة بل يتعداها إلى تقييمها والحكم عليها وفقاً لمُثل تحكمها أو ترتجيها لتحقيق الخير العام. وهذا هو الفرق بين النظرية والمذهب فى السياسة فالنظرية تتناول الواقع العقلى، والمذهب يتعدى هذا الواقع إلى المثل المنشود.

وحين نبحث عن النظرية السياسية فى الشريعة الإسلامية نقول إنها تتناول ما يترتب على قيام الشريعة فى عالم الواقع على أساس موضوعى، ولكن الشريعة بما جاءت به من أحكام تمثل واقعاً ملزماً. وهنا يتعذر الفصل بين النظرية والمذهب فى استقراء واقع سياسى للشريعة الإسلامية إذا أن المذهب الذى ينشده الفكر السياسى فى الشريعة الإسلامية يكتمل فى واقعها المثالى ولأنه واقع ملزم ومكتمل كان التطابق بين النظرية والمذهب كلاً لا ينفصل، وكانت الشريعة هى التى تقيم المذهب السياسى للدولة وكانت النظرية السياسية للدولة الإسلامية هى التفسير الموضوعى للعلاقات المتجانسة التى تحكمها الشريعة.

فهل كان هذا التطابق فى الواقع التاريخى؟

من الجاهلية إلى الإسلام:

شهد المجتمع العربى فى الجاهلية نوعاً من أنواع الدولة القديمة غاب عن المؤرخين القدامى كما غاب عن المحدثين ممن كان عليهم أن يلتفتوا إليه وأغفله مؤرخو الفكر السياسى فى الغرب لقلة زادهم من التراث العربى، ففى تاريخ اليمن القديم ما يدل على قيام دولة لها حكومتها ولها حضارتها المتميزة، وقام فى مكة ما يشبه نظام دولة المدينة عند اليونان، فإلى قصى جدّ النبى اجتمعت كلمة قريش فى القرن الخامس الميلادى، فأنشأ دار الندوة يجتمع فيها من أهل مكة من بلغ الأربعين تحت إمرته ليتشاوروا فى أمورهم وأمور بلدهم فلم يكن يتم أمر إلا باتفاقهم وأصبحت له إمارة اللواء فلا تعقد راية الحرب إلا بيده والحجابة فلا تفتح أبواب الكعبة ولا يقوم على سدانتها غيره، وسقاية الحاج ورفادته فقد كان من عاداتهم أن يملأوا للحجيج أحواضاً من الماء يحلونها بالتمر والزبيب، كما كانو يقدمون لهم طعاماً على سبيل الضيافة، وكانت تلك مظاهر الرياسة فى مكة، وهو أوّل من فرض الرفادة على بطون قريش جميعاً فتخرج إليه من أموالها كل عام ما يصنع به طعاماً ينال منه من لم يكن ذا سعة ولا زاد من الحاج إذ قال لهم «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل حرمه، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الأضياف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم».

وتقاسم رؤساء قريش ما يلى ذلك من أمور السلطة حتى يستوى الأمر بينهم على وفاق. ولا يختلف هذا النظام كثيراً عن مثيله فى دولة المدينة اليونانية، بل إن التكوين الاجتماعى فى الاثنين كان متقارباً فنظام الرق كان قائماً فى مكة كما كان فى أثينا وغيرها من المدن اليونانية، ثم كان المواطن القرشى كالمواطن الأثينى، وكان الأجانب فى المدينتين أغراباً عن المدينة وليس لهم حقوق المواطن وإن كان لهم فى مكة حق الضيافة والرعاية وفقاً للتقاليد العربية.

وحين جاء الإسلام اجتمع على العقيدة السماوية الجديدة أفراد كونوا مجتمعاً أسريًّا فى البداية أساسه التعاطف والتواصل الدينى والأخوّة التى ربط بها الإسلام المسلمين وهى أخوّة ارتقت فى فترة من الفترات إلى أخوّة الدم والعصب، وكان مجتمعاً جديداً فى جوهره وفى طبيعته، وإن ظلت المادة التى نشأ منها كما هى فالبيئة هى البيئة القديمة والناس وثنيو ما قبل الإسلام.

ولكن التغيير كان قويًّا وعميقاً نفذ إلى قلوب الناس وإلى عقولهم فحولهم طرازاً آخر وجعل منهم أفراداً لا يمتّون لذواتهم القديمة بشىء ما وكان هذا بداية لمجتمع سرعان ما نما وامتدّ حتى تكوّنت منه أمة الإسلام وقامت عليه الدولة الإسلامية فى نطاقها الأكبر.

ولم يكن الفكر مواتياً لتقبل الدين الجديد فحسب بل كان مواتياً لتقبل التغيير الاجتماعى والسياسى الذى يتفق والتعاليم الدينية الجديدة، فلم يأت الإسلام على فراغ وإنما نشأ فى بيئة حضارية مواتيه لتقبل الدعوة الجديدة إن تفاوتت فيها درجات الحضارة فقد كانت جميعاً على استعداد لتقبل التغيير الجديد، وما يعنى بجاهلية ما قبل الإسلام لا يعنى البداوة والتخلف بقدر ما يعنى الجهالة الدينية، وإن العرب انتقلوا بالإسلام إلى المعرفة الدينية الصحيحة والإدراك الكامل لحقيقة الوجود وقد يسرى هذا المعنى على أمم لم تدرك حقيقة الإسلام فى الوقت الحاضر، فإذا كانت الجاهلية قد لصقت بالعرب دون غيرهم من الأمم التى اعتنقت الإسلام فلأن العقيدة الإسلامية بعثت أوّل ما بعثت بين العرب فارتبط المعنى بهم وجرى بذلك من بعد، فلم تكن الحياة فى مكة وفى كثير من البقاع العربية على ما يصوره البعض تخلفاً وانحطاطاً، ويكفى أن نقول إن الإسلام قد جاء فى الوقت الذى تفتحت فيه العقول لتقبل عقيدة التوحيد.

فإذا كان الإسلام قد بعث فى مكة وفى الجزيرة العربية دون غيرهما فلأن مكة كانت حاضرة العرب وأن الحياة فيها قد بلغت مستوى من الحضارة لا يقل عن مثيله فى البلاد الأخرى؛ ولأن الجزيرة العربية كانت المكان الملائم لنشأة عقيدة جديدة لا تتعرض لسلطان الدولة فى فارس أو روما ولأنها قد نضجت حضاريًّا وفكريًّا للدعوة الجديدة، حتى

كان من قريش بعد الإسلام - كما يرى نولدكه - من عدّهم بحق من أعظم رجال السياسة والحرب، وعلى غير ما يذهب إليه «رينان» فى إنكاره لحضارة عربية قبل الإسلام يرى «جوستاف لوبون» فساد رأى رينان، ويقول: «إن جهلنا لماضى العرب لا يعنى إنكاره، فليس لحضارة أن تبلغ هذه الدرجة الرفيعة من التطور ما لم تتهيأ له فى بطء وتصعد إليه درجات فى سلم التطور وما من حضارة راقية على مسرح التاريخ إلا وكانت ثمرة ماض طويل، يكفى لتمثلها أن نذكر أنه كان للعرب قبل ظهور محمد آداب ناضجة ولغة رفيعة وأنهم كانوا على صلات تجارية بأرقى أمم العالم القديمة، فاستطاعوا فى أقل من مائة عام أن يقيموا حضارةً من أبدع ما عرف التاريخ».

ولا ريب أن العرب قد عرفوا أنظمة شتى للحكم من الحكم الأبوى الممثل فى شيخ القبيلة إلى الحكم الملكى الأوتوقراطى كما كان فى اليمن إلى الحكومة الشورية على غرار ما كان فى مكة فإذا أتيح للعرب بظهور الإسلام وانتشاره أن يقيموا دولةً ويبدعوا نظاماً للحكم فلأنهم قد تمرسوا بالقدرة عليها من قبل، وما كان الإسلام إلا هادياً ومرشداً لما يجب أن تكون عليه أمتهم وما يجب أن تقوم عليه حكومة تسوس أمورهم.

وقد اكتمل البناء الاجتماعى للعرب قبل أن يكتمل بناؤهم السياسى فغدوا يتكلمون لغةً واحدةً وإذا تجاهلنا الفروق بين الحضر والبادية رأينا مثلهم الاجتماعية والدينية - إلا من اعتنق المسيحية أو اليهودية منهم - لا تختلف كثيراً، فالنجدة والكرم والشجاعة من حميد الخلق، والميسر ووأد البنات من نقائصه، كانت خلالهم جميعاً على اختلاف قبائلهم، كما عمتهم الوثنية وعلى اختلاف أصنامهم وأوثانهم وأنصابهم كانوا يتجهون إلى هبل رب الأرباب عندهم كما كان زيوس عند اليونان وكما كان جبل الأوليمب مقام زيوس، فقد كانت الكعبة مقر هبل ومقامه إليها تشدّ المطايا وتشخص الأبصار من كل بلاد العرب فاعتزت بها مكة وعزت. وكان الشعر عندهم كما كان الشعر عند اليونان ملحمة أمجادهم وعظمائهم وكان منزع حكمتهم وأمثالهم تعلو به أقدارهم وتتأصل بروايته مفاخرهم، ولكنهم ظلوا قبائل وشيعاً ولم يكونوا جماعة سياسية إلا فى ظل الإسلام.

وبدأت هذه الجماعة السياسية صغيرةً ثم أخذت تنمو وتكبر وتتسع حتى وسعت الجزيرة العربية ثم وسعت عالم الإسلام الكبير ولم تعد تمثل العرب وحدهم بل أخذت تتمثل فيهم أمماً وأجناساً غير العرب دانوا جميعاً لهذه الجماعة السياسية الأولى وغذوها بنظمهم كما غذتهم بمبادئها وتعاليمها الجديدة.

البداية :

وقامت هذه الجماعة السياسية الأولى فى المدينة عربيةً خالصةً لم تأخذ شكل الدولة وإن كانت قريبةً مما نسميه دولة المدينة بحكم ما جرت عليه فى إدارة شئونها فى السلم وفى الحرب ، وكانت بسيطةً فى نظامها بساطة الدين الذى استوحته هذا التنظيم والتزمت بتعاليمه ، وكان قيامها نتيجةً حتميةً لقيام مجتمع جديد مخالف تماماً لكل ما كانت عليه المجتمعات السابقة ولم يعد لأفراده صلة تربطهم بحياتهم الأولى أو بما كانوا عليه قبل الإسلام ، فقد كان على هذه الجماعة أن تدير شئون حياتها وكان عليها أن تحكم أمورها بما يتفق وتعاليم الدين الجديد ، فأما شئون الحياة فقد تركها لهم النبى فهم أعلم بشئون دنياهم وأما ما يمس الدين فمردهُ إلى الشريعة .

ولم تقصد هذه الجماعة الصغيرة التى اعتنقت الإسلام أن تكون جماعة سياسية وإنما اقتضاها وضعها الجديد فى المدينة أن تكون لها هذه الصفة ولم تكن هناك سلطة بالمعنى المعروف للسلطة وإنما كانت هناك سلطة الضمير ومسئولية الفرد قِبَل الخالق ثم رقابة المجتمع ، وكانت مسئولية الفرد قبل الخالق أقوى من رقابة المجتمع فقد كان لكل امرئ وازع من نفسه يحمله إذا ما ارتكب وزراً أن ينشد المعرفة فقد يرتكب الوزر وهو لا يدرى أن الإسلام قد نهى عنه ، وكانت القدوة خيراً من الرقابة ، وهى فى ذاتها أثر من آثار الوازع النفسى والخلقى وهما مما ينمّ عن مسئولية الفرد قبل الخالق وهى مسئولية مبعثها الإيمان الروحى والاقتناع العقلى .

فمن حديثه عليه الصلاة والسلام « إن الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبين ذلك أمور مشتبهات ، لا يدرى كثير من الناس أمن الحلال هى أم من الحرام ، فمن تركها استبراءً لعرضه ودينه فقد سلم ، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يواقع الحرام كما أنه من يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » فإذا وقع الوزر على بينة أقيم الحدّ ووجب القصاص بما أوجبت الشريعة ، وفى مثل هذا المجتمع الصغير تكون السلطة جميعاً فى يد قائد الجماعة أوراعيها ، ولكنها ليست سلطةً مطلقةً وإنما هى سلطة تحكمها الشريعة كما يحكمها رأى الجماعة فإذا رأت الجماعة رأياً لا يتفق وأحكام الشريعة ، علت الشريعة على رأى الجماعة ، ولا تكون مخالفة الجماعة لأحكام الشريعة إلا من قبيل التجاوز لا من قبيل الإنكار أو خرقاً للدين ، كما كان من شفاعة أسامة بن زيد لفاطمة المخزومية فقد أقيم عليها الحدّ حفاظاً على الشريعة وهى القانون الذى يحكم هذه الجماعة الإسلامية والذى سيحكم أمة الإسلام من بعد .

وكان القرآن والسنّة مصدر الشريعة، والقرآن وحى نزل به الروح الأمين على قلب النبى بلاغاً للناس، والسنّة ما أثر عن النبى من قول أو فعل فهى بيان القرآن الكريم وتبليغ للرسالة وتفصيل لأصول الشريعة فالمأثور عنه عليه الصلاة والسلام حجة وبينة وفى قوله تعالى: (لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)[١].

والقرآن سور مكية وسور مدنية، وقد وقفت السور المكية عند الدعوة للعقيدة وإثباتها ثم كانت السور المدنية بياناً للأحكام والنظم والمعاملات التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى، وهى من ضروب الإعجاز فى القرآن لا يغيب وجه الإعجاز فيها عن «العرب والعجم وكل من يدرك ويفهم» بتعبير الشيخ أبو زهرة، أو بتعبير القرطبى من أن «ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام الأنام فى الحلال والحرام وفى سائر الأحكام».

وعلى هدى القرآن وسنن النبى كان طابع المجتمع الجديد الذى بدأ أوّل ما بدأ فى صورته الاجتماعية فى المدينة، وإن بدأ فى صورة فردية فى مكة، إلا أن الأمر فى مكة كان لسادة قريش وأشرافها من الوثنيين، أما فى المدينة فقد غدا الأمر فيها للمسلمين وكان عليهم أن ينظموا حياتهم على ما يجرى به التغيير الجديد عقليًّا وفكريًّا واجتماعيًّا.

وفى المدينة كانت البداية:

دولة المدينة:

لم تكن جماعة سياسية بالمعنى القانونى للجماعة السياسية، وإنما جاء التنظيم السياسى تبعاً للتكوين الاجتماعى، فما أن صار الأمر فى المدينة لمحمد وصحبه وتكاملت الجماعة الإسلامية الأولى حتى كان عليهم أن يواجهوا مطالب حياتهم الجديدة فأما ما كان من شئون دنياهم فى غير ما جاءت به الشريعة فقد تركها النبى لهم بقوله «أنتم أعلم بشئون دنياكم»، ثم كان هذا التنظيم السياسى يتطور على الدوام بتطور المجتمع الإسلامى ونموه، وكان التطور يأتى تباعًا كلما بدت الحاجة إليه منذ اكتمل التكوين الاجتماعى للجماعة الإسلامية فقد ظل هذا التكوين الاجتماعى الأول فى المدينة صورةً للجماعة الإسلامية الكبرى فى نموها وامتدادها.

إلا أن ما جاءت به الشريعة من تنظيم السلوك والمعاملات قد خلا تماماً من أى تفصيل للأساس الذى تقوم عليه الدولة أو لشكل الحكم، فإذا جد أمر كان الرأى شورى بين المسلمين، ولعل ذلك ما تعنيه الآية الكريمة (وشاورهم فى الأمر) وآية (وأمرهم شورى

(١) الأحزاب: ٢١.

بينهم) بل إنهما لتعنيان تماماً الفصل بين الدين والدنيا أو بالتعبير الغربى الحديث الفصل بين السلطتين الدينية والزمنية ، وإذا قلنا الغربى فلأن الإسلام لم يعرف ارتباط السلطتين كما عرفته أوربا خلال العصر الوسيط ، ولم يكن الخليفة الإسلامى على مدى تاريخ الخلافة ممثلاً للسلطتين الدينية والزمنية ولم يكن له رأى فى شئون العقيدة وإن ظلّ حامياً وحارساً لها بماله من السلطة الزمنية ، وإن ظلت الآيتان الكريمتان هدياً للنظرية السياسية الحديثة « الأمة مصدر السلطات » ونبراساً لفلسفة الحكم فى الإسلام .

وكان إغفال الشريعة لما يجب أن تكون عليه الدولة أو نظام الحكم أمراً حكيماً إذ لو عرضت الشريعة للأساس الذى تقوم عليه الدولة أو قررت نظاماً معيناً للحكم لأصبح إلزاماً على المسلمين أن يتبعوه ولجمدت الدولة وجمد نظام الحكم مما يتنزه الإسلام عنه ، كذلك لو ربطت الشريعة بين الدين والدولة لغدت الدولة الإسلامية نظاماً دينياً يزلزل الخروج عليه ثبات العقيدة ، وقد صاحب فصل السلطتين الزمنية والدينية فى أوربا موجة من التنكر للعقيدة المسيحية كانت سبباً فى موجة الإلحاد التى صحبت العقل الأوربى فى تحرره وانطلاقه .

وقد ظلّ الإسلام يخاطب العقل فلو وضع قيوداً على الفكر كما وضعت الكنيسة من قيود لأصاب المجتمع الإسلامى فى العصر الوسيط ما أصاب المجتمع المسيحى من جمود ولكانت الثورة على هذا الجمود كالثورة على الكنيسة انفلاتاً من الدين ينتهى إلى الإلحاد .

وعلى غير ما كانت يقظة المسيحية فى أوربا بالثورة على الكنيسة كانت اليقظة الإسلامية بالعودة إلى إحياء سنن السلف الصالح . فكانت اليقظة المسيحية انفلاتاً من اللاهوت وانطلاقاً بالفكر إلى علمانية مجردة ، وكانت اليقظة الإسلامية انفلاتاً من الجمود وانطلاقاً بالفكر إلى التأمل والاجتهاد كما كانا فى صدر الإسلام ، وانتهت الانفلاته والانطلاقة بالاثنين معاً إلى اليقظة والنهوض ، ولكن انطلاقة أوربا انتهت بها إلى الإلحاد ، وأما انطلاقة المسلمين فانتهت بهم إلى الإيمان ، فكم من المفكرين المحدثين فى الإسلام لفحتهم الموجة الغربية فى بداية شبابهم إلى التحرر الدينى حتى إذا أوغلوا فى التأمل والاجتهاد عادوا إلى حمى الدين عندما أيقنوا أن الإسلام لا يضع قيوداً على تفكيرهم كما وضعت المسيحية من قيود على الفكر الأوربى .

وقد شرع الإسلام نظاماً للمجتمع تناول كل شئونه الاجتماعية والاقتصادية والخلقية نظاماً لا ينكره العقل ولا يجفوه المنطق ، وكان على الجماعة الإسلامية الناشئة فى المدينة أن تحافظ على نظامها الاجتماعى الجديد وتحميه ، وإذا قلنا الاجتماعى ولم نقل الدينى فلأن الدين الجديد قد وضع الأساس كاملاً للنظام الاجتماعى ، فإلى جانب العبادات قام تشريع

كامل للعلاقات الاجتماعية والمعايير الخلقية والمعاملات الاقتصادية كما كان على هذه الجماعة أن تحمى نفسها فكانت شريعة الحرب والسلام وعلاقات المسلمين بجيرانهم، وكان هذا اللبس الذى تراه عند بعض الباحثين فى محاولة الربط بين الدين والدولة فى الإسلام، وإضفاء نوع من القداسة على الخلافة الإسلامية أكده العباسيون وأخذه عنهم العثمانيون لدعم سلطانهم على النفوس. وتأثر به مفكرو الإسلام من بعد.

وكان لابدّ فى الخروج على هذا النظام من الرجوع إلى صاحب الرسالة فيه فهو الأقدر على الفصل فى الأمور وبيان الخطأ من الصواب، فكان عليه الصلاة والسلام هو المرجع فيما يعجم على المسلمين من أمور الشريعة وكان إليه وحده أو لمن يفوضه أن يفصل بين الناس وفقاً لأحكام الشريعة، وكان يكفى أن يفقه الناس فى دينهم حتى يستوى الأمر بينهم على ثبات ويقين، ولم يكن على من يوفدهم إلى القبائل والمدن التى تعتنق الاسلام إلا أن يفقهوا الناس فى دينهم ويعلموهم قواعده وكيف يكون سلوكهم وأخلاقهم متفقين مع هذه القواعد.

ولم يكن على النبى نفسه إلا أن يدعو إلى الإسلام ويعلم الناس قواعده، واقتصرت دعوته فى مكة على هذا الأمر وحده، فلما بدأت الجماعة الإسلامية الأولى فى المدينة نزلت السور المدنية بتفصيل واف لما يحكم نظام حياتها، فبقدر ما نأى الإسلام عن فكرة الدولة بقدر ما ربط بين الدين والدنيا.

إلّا أن النبى وقد رأى هذه الجماعة تتكوّن وتنمو بمن يقبل على اعتناق الإسلام كان عليه أن يقوم برعايتها ويسوس أمورها، وكان من مظاهر سياسة هذه الجماعة الناشئة فى المدينة ماعده البعض حكومة نظامية دون أن يعنوا بشرح حقها فى السيادة وحدودها فى السلطة أو ممارستها للسلطة، فإذا قيل إن الحكم فى شبه الجزيرة العربية لم يكن يعرف هذه المعانى السياسية المحددة لمقتضيات السيادة والسلطة وإن الحكم فى المدينة لم يكن يختلف كثيراً عما كان يجرى فى الجزيرة العربية لوقعنا فى تناقض ننزه التاريخ عنه، فقد شهدت الجزيرة العربية أشكالاً عديدة من الحكم تباينت إلى أبعد مدى بين الحضر والبادية، ولم يغير النبى شيئاً مما كان منها وكان يكتفى فى كل منها - كما قلنا - بأن يرسل إليها من يفقه الناس فى دينهم ويعلمهم فرائضه.

وكانت الحاجة إلى تنظيم معين هى التى تدعو إليه، وقد ظلت هذه الحاجة تدعو المسلمين على الدوام إلى الاقتباس من أنظمة الدول المجاورة، وكثيراً ما كانوا يدعون البلاد على ما هى عليه من نظامها القديم ولا يغيرون من إرادتها وقوانينها إلا ما تقتضيه سياسة الحرب والخراج وأحكام الشريعة لمن يعتنقون الإسلام، ويرى جوستاف لوبون فى ذلك نوعاً من الحكمة السياسية فيقول فى كتابه «حضارة العرب»: «والعرب وهم أحكم من

كثير من أقطاب السياسة المعاصرين، كانوا يدركون تماماً أن نظاماً واحداً لا يوافق جميع الأمم على السواء، فكانوا يتركون الأمم المغلوبة حرةً فى المحافظة على قوانينها وعاداتها ومعتقداتها». وإن كنا نرى فضلاً عن هذه الحكمة التى يراها «لوبون» فى سياسة العرب الفاتحين، أن الدين الذى يدين به العرب لم يعن قط بالسياسة ولم يعرض لنظام الدولة، فإذا قامت أنظمتهم على الاقتباس فأولى بهم أن يتركوا كل أمة على نظامها وقوانينها.

وقد دعت الحاجة الرسول غداة نزوله بالمدينة إلى التفكير فى أن يؤمن المسلمين على دينهم ويكفل لهم الحرية فى عقيدتهم، ولم يكن من خوف على المسلمين فى مدينة اعتصم أهلها بالإسلام وأصبحوا مع المهاجرين كثرةً تستطيع أن تتصدى لليهود من سكانها ولمن بقى على الشرك من أهلها، ولكنهم كانوا قبيلاً من المهاجرين والأنصار ومن الأوس والخزرج ولا يأمن الرسول أن يمشى المنافقون بوشاية بين المهاجرين والأنصار أو أن تثور الحزازات القديمة بين الأوس والخزرج فكان أن دعا المسلمين ليتآخوا فى الله أخوين أخوين فكانت بداية الإخاء الإسلامى الذى ربط المسلمين بعضهم إلى بعض أمد الدهر وإلى أبده، فما زال الإخاء يشدّ نفوس المسلمين بالألفة والتواصى إلى وقتنا هذا على تفرق دولهم وشعوبهم، فما من نازلة تحل بدولة من دول الإسلام إلّا وتهبّ جميع الدول الإسلامية مؤيداً ونصيراً، ولم يشهد التاريخ بين الدول الإسلامية ما ثار من حروب بين الدول المسيحية، ولم تشهد ديار الإسلام من حروب ما شهده غيرها من الديار ففى ظل الإخاء الإسلامى عاش المسلمون فى سلام دائم لا يرقى إليه السلام الذى فرضته روما فى عالمها القديم.

وكان الإخاء الذى دعا إليه الرسول فى المدينة اللبنة الأولى فى البناء الاجتماعى للحضارة الإسلامية، ويراه الدكتور هيكل بداية «الطور السياسى الذى أبدى محمد فيه من المهارة والمقدرة والحنكة ما يجعل الإنسان يقف دهشاً ثم يطأطئ الرأس إجلالاً وإكباراً. كان أكبر همه أن يصل بيثرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل فى سائر أنحاء الحجاز».

وإن كنا نرى أن بغية محمد لم تكن الوحدة السياسية بقدر ما كانت الوحدة الاجتماعية، فما كان ينشد إقامة دولة بقدر ما كان ينشد صهر العديد من الأجناس التى تعتنق الإسلام فى وحدة اجتماعية يعلو فيها الإخاء الإسلامى على سورات الجنس ونوازع العصبية، فإن اختلطت صورة العمل الاجتماعى بالعمل السياسى فلأن السياسة كما قلنا من قبل تنبع من طبيعة المجتمع بمطالبه وحوافزه وضروراته، وهو ما يراه أيضاً جوستاف لوبون إذ يقول إن «العرف والبيئة وأساليب الحياة والعوامل الأخرى التى نرى الضرورة أقواها وعزيمة الرجال أضعفها، أسباب رئيسية فى نشأة النظم» كما يقول: إن النظم

لا تتبدل وهى صورة لحاجيات الأمة ومشاعرها، إلا بتبدل تلك الحاجيات والمشاعر» فالنظام السياسى عنوان على النظام الاجتماعى أو بمعنى أدق هو نتاج الطبيعة الاجتماعية، فالمجتمع الدينى فى مصر القديمة خلف ملكيةً إلهية وجعل للكهنة سلطاناً يعلو على سلطان الدولة، والمجتمع اللاهوتى فى أوربا العصور الوسطى انتج ثنائية السلطة وبقيت السلطتان الدينية والزمنية تتنازعان الأولوية فى التقدم كل منهما على الأخرى، وكانت الديمقراطية ونشأة الدولة القومية الحديثة ثمرة مجتمع بورجوازى عمل على هدم نظرية الحق الإلهى المقدس للملوك، كما قوض نظام الإمبراطورية الدينية وأقام على أنقاضها الإمبراطوريات الاستعمارية التى نشأت فى حمى الدولة القومية وتطلعها إلى القوة والقهر وتنمية الثروات القومية، كما تدين الدولة الاشتراكية الحديثة بوجودها لقيام مجتمع صناعى كان سبباً فى نمو الطبقة العمالية وتفوّقها ثم غلبتها فى النهاية.

فالنظام السياسى فى الإسلام نشأ بنشأة المجتمع الجديد وحاجته إلى التنظيم ومن الطبيعى أن يؤدّى أى تنظيم لشئون المجتمع إلى وضع السلطة وتحديدها ولم تأخذ السلطة وضعها السياسى فى الإسلام إلا فى وقت متأخر فلم يكن النبى صاحب سلطة، ولم يمارس من شئون السلطة إلا ما تقتضيه سلامة العقيدة وأحكام الدعوة، فإذا كان شأن من شئون الدنيا أبى على نفسه أن يكون له ما يعلو به على أصحابه، فكان يقول لهم: «لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله» ويجلس منهم حيث ينتهى به المجلس، وينهاهم أن يقوموا له فيقول: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضاً» وهو بعد ذلك قائد الجماعة وراعيها، يبدو وقد امتلك زمام السلطة بيديه، ولكنه فى الحقيقة لم يكن له منها إلا ما تقبله الجماعة عن رضى واقتناع إلا ما كان من أمور العقيدة فله فيها السلطان الأعلى، ففى بدر أشار على الناس واستشارهم، واستمع إلى رأى أبى بكر وعمر، ثم قام المقداد بن عمرو قال: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم مقاتلون» وطلب عليه الصلاة والسلام أن يشير عليه الناس بقوله: «أشيروا علىّ أيها الناس» فقام إليه سعد بن معاذ صاحب راية الأنصار وقد أدرك أنه يقصدهم فقال: «لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال سعد: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض لما أردت فنحن معك، فو الذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، وما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لصُبُر فى الحرب صُدُقٌ فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك

فسر بنا على بركة الله». فلما أتوا بدراً كان للحباب بن المنذر رأياً غير رأى النبى ولما رأى النبى صواب رأيه اتبعه معلناً إليهم أنه بشر مثلهم والرأى شورى بينهم فلا يقطع برأى دونهم.

ولم يكن النبى حاكماً وكان يخشى أن ينظر إليه صحابته نظرتهم إلى حاكم فلم يتخذ من مراسم الحكم شيئاً ولم يحط نفسه بهالة الحكام، وفرق ما بين السلطتين الزمنية والدينية، فما كان من الدين فهو من عند الله وقد اصطفاه للرسالة والدعوة فهو صاحبها وإليه وحده حق تفسيرها وإرشاد الناس إلى فروضها وأحكامها، وما كان من شئون الدنيا فهو للناس يدبره معهم ويدبرونه معه، فقبيل بدر أشار على أصحابه وأشاروا عليه، وقد رأينا ما كان من نزوله على رأى الحباب بن المنذر، ونراه بعد ذلك يستمع إلى مشورة سعد بن معاذ فى بناء عريش يكون فيه ومعه ركائبه، فإذا أعز الله الإسلام بالنصر كان ذلك «ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك».

وكان أقرب من يشاورهم إليه أبا بكر وعمر فهما وزيراه أو هكذا كان يسميهما، وما كان ذلك من قبيل التشبيه بالسلطان الزمنى، وإنما كان يراهما منه كما كان هارون من موسى يستعين برأيهما ويعتز بمؤازرتهما، وقد دعا ربه أن يؤيد الإسلام بعمر بن الخطاب وكان أبو بكر أوّل المسلمين ولم يكن عمر قد أسلم بعد، وقد شاورهما غداة قدومه على المدينة فيما يكون عليه أمر هذه الجماعة الناشئة وأمر هذه المدينة وأهلها الذين استقبلوه خافقةً قلوبهم بالجلال والحب والوفاء، وكان ما انتهى إليه الرأى بينهم فى دعوة المسلمين ليتآخوا فى الله أخوين أخوين وكان الرأى وليد المواجهة لوضع جديد فالمهاجرون غير الأنصار وهما معاً فى مواجهة اليهود ومن بقى على وثنيته من أهل يثرب، والمهاجرون أنفسهم وإن كانوا من أهل مكة إلا أنهم يمثلون بطونها وأفخاذها فهم شتيت لا تربطه صلة الدم أقوى روابط العرب فى الجاهلية، والأنصار من الأوس والخزرج على ما كان بينهما من نزاع قبل أن يجمع بينهما الإسلام، وكان على هذا الشتيت المتباين أن يتآزر على أمور الدنيا تآزره فى الدين، وما أسمى أن يجمع الإخاء بينهم وأن يصبح الإخاء الإسلامى شعيرةً من شعائر المسلمين فى دنياهم وأن يكون إلى ما شاء الله قوام البناء الاجتماعى للأمة الإسلامية لا ينال منه تباين الأرومة واختلاف اللون أو الجنس.

ثم كانت الخطوة التالية فى تأمين المسلمين وكفالة حرية الدعوة أن يضع ميثاقاً[٢] يوائم

(٢) نص الكتاب نقلا عن «حياة محمد» للدكتور هيكل، نقلا عن سيرة ابن هشام التى انفردت بذكره: =

فيه بين المهاجرين وأهل المدينة من الأنصار واليهود وغيرهم من المشركين وهو ماظنه البعض معاهدةً أبرمها مع الأطراف التى تقيم بالمدينة وخاصةً اليهود وإن استلزم الميثاق إقرار الأطراف المتباينة إلا أنه الإقرار الذى ترتضيه الطوائف العديدة لحياتها معاً وليس الإقرار الذى ينظم العلاقة بين جماعات سياسية مستقلة.

وقد رمى النبى فى هذا الميثاق إلى تقرير مبادئ والتزامات رأى فيها ضماناً لحرية الدعوة وأمن المسلمين فأقر حرية الرأى وحرية العقيدة وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة، وهى مبادئ والتزامات ترى الأطراف الأخرى حاجتها إليها كحاجة

= بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين - ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار: بنى الحارث، وبنى ساعدة، وبنى جشم، وبنى النجار، وبنى عمر وبنى عوف، وبنى النبيت، إلى أن قال: وان المؤمنين لا يتركون مفرحا - أى مثقلاً بالدين والعيال - بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل، ولا يحالف مؤمن مول مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم، أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة - أى المساواة فى المعاملة - غير مظلومين ولا متناصر عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين يبىء- يقال أبأت فلانا بفلان إذ قتلته به. أى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم - بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اعتبط - أى قتله دون جناية - مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم والآخر أن ينصر محدثا - أى جانيا - ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله وإلى محمد - عليه الصلاة والسلام - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا أمن ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ - أى يهلك ويفسد - إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبة ولجفنة ولبنى الشطبة مثل ما ليهود بنى عوف. وأن موالى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد - عليه الصلاة والسلام - وأنه لا يتحجر على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الأثم وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واستجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله - ﷺ - وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الأثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى ».

المسلمين تمامًا ، فلا يمكن أن تستقيم الحياة لقوم يعيشون فى مجتمع واحد لا تحكمهم مبادئ والتزامات تؤمّن الجماعات كما تؤمّن الفرد منهم على حريته وماله وحرمة مقامه ، حتى أن بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع مالبثوا أن وقعوا بينهم وبين النبى مواثيق مماثلة .

ولعلنا نرى فى هذه المبادئ التى أقرها الكتاب نوعًا من التنظيم السياسى لدولة المدينة وإن لم يكن القصد منه وضع نظام لدولة تنشأ بقدر ما كان تنظيماً لمجتمع ناشئ وإن حمل فى طياته أسس بناء الدولة التى يمكن أن تنشأ نتيجةً لقيام المجتمع الجديد واكتمال شخصيته ، ولا يعدو كونه مواجهة موقف كان على النبى أن يواجهه حينذاك ، وإن تضمن أحكاماً يمكن أن تبقى إلى ما شاء الله للحياة الإنسانية أن تبقى ، ولكنه دون ريب قد وضع الأساس الاجتماعى للجماعة السياسية التى يمكن أن تنشأ وتتكون فى إطاره ؛ إذ جعل من المسلمين على اختلاف أرومتهم أمةً واحدةً وهو ما نصّ عليه القرآن صراحةً فى مواطن كثيرة .

ففى صدر الكتاب يقول : « هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس » . فكل من اعتنق الإسلام وآمن به واحد من أمة الإسلام مهما كانت نسبته ، ومهما كان قبيله ، كما وضع الأساس الإنسانى لوحدة البشرية ، وحدة لا يكدرها استعلاء ولا يشوبها تمايز وتتأكد هذه الحقيقة على الدوام فى كل ما جاءت به الشريعة والسنّة كما تتأكد فى السلوك الاجتماعى للمسلمين فى صدر الإسلام على عهد النبى وعلى عهود الخلفاء الراشدين .

ونستطيع أن نتصور الحياة فى المدينة على هذا العهد ، فقد أصبح للمسلمين فيها الكثرة على سكانها ، ولم يكن من اليهود أو المشركين من يغالبهم قوةً أو قدرةً وإن لم يسلم المسلمون من كيدهم ودسّهم ، وكان على النبى أن يؤمّن للمسلمين حياتهم وحريتهم وأن يقوم بالدعوة مطمئنًا إلى قدرة أصحابها على الدفاع عنها حتى تعلو كلمة الحق ويكون الدين لله ، ووضع بذلك سنّة الجهاد فى الإسلام ، الجهاد الروحى والمعنوى والجهاد المادى ، الجهاد بالكلمة والرأى ، والجهاد بالمال والنفس ، فكانت شرعية القتال دفاعاً عن العقيدة كحرية الدعوة إليها تتصلان وتتلازمان ، فإذا هيضت حرية الدعوة ، كان القتال دفاعاً عنها ، كالقتال دفاعاً عن سلامة العقيدة دفاعاً يتصدى للعدوان وينكر الاعتداء وكانت سياسة الحرب والسلام مما واجهته هذه الجماعة الناشئة فى المدينة كما واجهت مطالب حياتها الأخرى .

إلا أننا حين نبحث عن شكل الدولة لا نجد له وجوداً حقيقيًّا وإنما نجد مبادئ لحياة اجتماعية منظمة كما نجد أسساً لنظرية سياسية تصلح أساساً للحكم فى كل العصور بما

اتسمت به من مرونة وقدرة على التطور، كما نجد شريعةً تحكم سلوك الناس وعلاقاتهم وتحكم الكثير من شئونهم الدنيوية، كما نجد نواة مجتمع متفتح قابل للنمو لا تحدّه سدود أو قيود إقليمية أو عنصرية، مجتمع يسع الوجود كله ويكون عنواناً على وحدة الوجود الإنسانى واتساقه.

المجتمع الإسلامى:

وفى هذا الإطار من المبادئ الاجتماعية والأخلاقية والدينية نما المجتمع الإسلامى واتسع وكبر فى إطار الدولة، فقد صاحب قيام المجتمع الإسلامى منذ البداية نوع من التنظيم لشئون الجماعة الإسلامية وسلامة تطبيقها، وقام هذا التنظيم على أساس المسئولية العامة للجماعة يتحمل كل فرد منها على قدر ما يستطيع من جهد ومال، وبقدار ما يمكن أن يؤديه بنفسه لنشر العقيدة، وبدا هذا واضحاً فى بيعتى العقبة الأولى والثانية، ففى الأولى لم يبغ النبى أكثر من هداية من سعى إليه من أهل يثرب يبغون عنده دعوة الحق والرجاء فبايعهم على «ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه فى معروف، فإن وفى ذلك فله الجنة، وإن غشى من ذلك شيئاً فأمره إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر» وأرسل معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين.

وكان الوافدون عليه اثنى عشر رجلاً، أمل منهم أن يكونوا نواةً لنشر الإسلام بين أهل يثرب، وكان له ما أمل فازداد عدد المسلمين من الأوس والخزرج، وزدادت بهم الدعوة فى يثرب منعةً وقوةً، حملتا محمد على أن تكون هجرة المسلمين وهجرته إليها، ولتكن هجرته إليها بداية صفحة جديدة فى الدعوة إلى الإسلام، دعوة لا يقف دونها عنت، ولا يحول بينها وبين الانتشار أذى قريش أو مساءاتها لأصحابه، وله فيها من الأنصار ما يتقوى بهم على دفع ما يمكن أن يصيبهم من أذى أو يحول بين الدعوة والانتشار بين الناس انتشاراً يقوم على الحرية والتأمل والإقناع ولا يعرف الضغط أو الإكراه، ولتكن بيعة العقبة الثانية مع القادمين عليه من يثرب، غير ما كانت عليه البيعة الأولى، فمن حق المسلمين أن يدفعوا الأذى عن أنفسهم وأن يحموا حرية الدعوة لدينهم، وأن يردّوا عن أنفسهم الأذى والعدوان بالعدوان.

فلما كانت السنة الثالثة عشرة من النبوّة كان الحاج من يثرب كثيراً وفيهم خمسة وسبعون مسلماً، «ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان» اتصل بهم محمد وعرف صدق نواياهم فى نصرة الإسلام والأخذ بيده فيما يدعو إليه، وكانت بيعة العقبة الثانية أقرب إلى التعاقد

الاجتماعى منها إلى التعاقد الدينى الذى عقدت عليه البيعة الأولى وكانت أدنى إلى منهاج السياسة منها إلى منهاج الدعوة إلى العقيدة والإيمان بها بعد أن جاءوا مسلمين ؛ لذلك صحب العباس ابن عبد المطلب - وكان لا يزال على الشرك - ابن أخيه فى لقائه معهم فقد أدرك أن فى الأمر حلفاً قد ينتهى إلى حرب فليستوثق لابن أخيه من نصرتهم له حتى لا يكون بنوهاشم وبنو عبد المطلب - وقد تعاهدوا على أن يمنعوا محمداً - وحدهم لا يجدون من أهل يثرب نصيراً، فكان أوّل من تكلم قائلاً :

- يامعشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وقد أبى إلاّ الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه، وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه.

فقالوا وقد سمعوا كلامه :

- سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

وأجاب عليه الصلاة السلام بعد أن تلا القرآن ورغب فى الإسلام :

- أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم

ومدّ إليه البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم يده مبايعاً، وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى قال :

- بايعنا يارسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر.

واعترض أبو الهيثم بن التيمان قائلاً قبل أن يتم البراء قوله :

- يارسول الله، إن بيننا وبين الرجال - يقصد اليهود - حبالاً نحن قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا وتبسم النبى قائلاً :

- بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم منى وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

ولما هم القوم بالبيعة اعترض العباس بن عبادة قائلاً :

- يامعشر الخزرج، أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن فدعوه فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

وأجاب القوم :

– إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا يارسول الله إن نحن وفينا لك ؟

ورد عليهم آمن النفس قائلاً :

– الجنة .

ولما فرغوا من البيعة قال لهم : أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء، فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثةً من الأوس، قال لهم النبى : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى، وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم .

وهكذا كانت بيعة العقبة الثانية عقداً اجتماعياً ربط بين القوم فى يثرب والقوم فى مكة ممن اتبعوا الدين الجديد، وهو عقد التزم بروحه المسلمون من بعد فأصبحوا فى ولائهم للإسلام أمةً لا يفرق بينها جنس أو عصب، ثم كانت المؤاخاة بين المسلمين فى يثرب من المهاجرين والأنصار فقضت على كل نزعة للعصبية وأكدت الأخوّة الإسلامية التى جعلت من المسلمين أمةً واحدةً ثبّت الوحىّ عراها بقوله تعالى : (إن هذه أمتكم أمّةً واحدةً وأنا ربّكم فاعبدون)[٣] ويقول جل جلاله : (إنما المؤمنون إخوة)[٤] وقوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته الجامعة فى حجة الوداع « تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة ».

وكان هذا العقد الاجتماعى فى العقبة الثانية كما كانت المؤاخاة بين المسلمين فى يثرب أساس التنظيم الذى قامت عليه الجماعة الإسلامية الأولى وظل سائداً طوال عهد الخلفاء الراشدين لحماية العقيدة والدفاع عنها ولحماية الشريعة وسلامة تطبيقها حتى أصبح الخليفة من بعد حارساً على الشريعة أميناً على سلامتها دون أن يكون له الحق فى تعديلها وإدخال أى نصوص عليها وما كان لمحمد نفسه أن يعدل فيها إلّا بأمر ربه وأصبحت الشريعة هى القانون الأساسى للجماعة الإسلامية فى العبادات والمعاملات وفى كل مايتصل بهما من علاقات اجتماعية أو اقتصادية، ولكنها لم تعرض للسياسة والحكم وتركت للمسلمين أمرهم شورى بينهم.

إلا أن الجماعة الإسلامية ككل جماعة إنسانية أخرى لابدّ وأن تتحول إلى جماعة سياسية وأن يقوم عليها من يدير شئونها ولم تتعد شئون هذه الجماعة الناشئة حماية العقيدة

---

(٣) الأنبياء : ٩٢.

(٤) الحجرات : ١٠.

والدفاع عنها، وكان هذا واجب كل فرد فيها وواجب الجماعة ككل، الرأى فيهما للنبى والشورى للمسلمين جميعاً فإذا عجم الرأى كان الأمر من عند الله، ألم يقل له من بايعوه فى العقبة: «والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا» فكان جوابه: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم» ثم كانت شئون العقيدةومردّها إليه وإلى الوحى، وكان بذلك قائد الجماعة وزعيمها له عليهم السمع والطاعةإلّا ما اتصل بشئون دنياهم فهم أعلم بها كما قال.

ومن العسير أن نقتنص صورةً للدولة فى إدارة الجماعة الإسلامية فى المدينة أو حتى فى الجزيرة العربية بعد أن استظلت بلواء الإسلام، أو نقتنص تقنيناً للتنظيم السياسى للمجتمع الإسلامى، إلّا أننا نستطيع أن نقتنص جوهر التنظيم السياسى لأى مجتمع إنسانى إسلامى أو غير إسلامى، كما نستطيع أن نقتنص روح التنظيم السياسى الذى يمكن أن يسود البشرية ويعيش فى ظلّة الإنسان عزيز الجانب موفور الكرامة آمناً على حقوقه وأملاكه ملتزماً عن طواعية واختيار بما عليه من واجب قبل الآخرين وقبل الجماعة التى ينتمى إليها والجماعات الإنسانية والسياسية الأخرى التى يرتبط بها.

وسادت روح الإسلام النقية فى خلافة الشيخين أبى بكر وعمر ثم أخذت بذور الفتنة تطل فى خلافة عثمان وعلى ولكن جوهر التنظيم السياسى وروحه فى الإسلام بقيتا سائدتين فى عهدهما أيضاً إلّا ما كان من إيثار عثمان لبنى أمية وكان سبباً فى نهايته تلك النهاية المفجعة التى شابت صفحة الإسلام بسواد قاتم لم يخرج من قتامه أبداً، ولم يجد علىّ خلال خلافته القصيرة من السلام والطمأنينة ما يمكنه من إنقاذ روح الإسلام فى الحكم فقد ضاعت نهائياً على يد الأمويين.

ولم يأذن الله بعد أن تقوم الدولة الإسلامية التى تمثل روح العقيدةً وجوهر النظرية السياسية فى الإسلام.

التحول الجديد:

اكتملت أركان الدولة لهذا المجتمع الدينى الجديد منذ البداية، ففى يثرب مهجر الرسول قام ما يمكن أن نعدّه دولةً للمدينة، ولما انتشر الإسلام فوسع أنحاء الجزيرة العربية محا الترات القديمة وقضى على التنافس والتنابذ والمنازعات بين البطون والقبائل العربية المتنافرة فأخذت تتواءم وتتحد على فكرة سامية تؤمن بها وتحدوها لتكون قوام حياتها الجديدة ولتنفذ بها إلى أرجاء العالم الفسيح، فكانت تلك المعجزة التى شهد التاريخ ولم يكن لها مثيل من قبل ولم تتكرر بعد، معجزة إقامة دولة انساحت فى الأرض فوسعت المشرق من

سور الصين والمغرب إلى شواطئ الأوقيانوس وعبرت العدوة إلى الأندلس فأقامت حضارة وملكاً لم يكن لها فى تاريخ أيبريا نظير من قبل ولا من بعد وكان من اليسير أن تنساح إلى بلاد الغال وإلى ما بعد بلاد الغال إلى قبائل الجرمان والفيكنج المتبررة لتسبق المسيحية إلى دعوة الحق واليقين، وأن تعبر البسفور لتبتلع بيزنطة وروما، كما ابتلعت فارس لولا الصراع على الحكم والتنافس على السلطان مما أوهن مسيرة الظافرين وأوقف توسع الدولة الإسلامية وحال بينها وبين الانسياج الفسيح لتعلو كلمة الإسلام فى أرجاء الأرض جميعاً وتتحقق وحدة الوجود الإنسانى .

وكان عام الوفود سنة تسع من الهجرة ثم فتح مكة فى العام التالى إيذاناً بالوحدة المرتقبة للأمة العربية فى ظل الإسلام فلم تبق ناحية من نواحى الجزيرة العربية إلا أحست قوة هذا الدين الجديد، كما أحست سلطان محمد، فإذا برمت ناحية بسلطانه أو حاولت أن تخرج عليه حملها على الإذعان والخضوع إما بدفع الجزية والبقاء على دينها وإما باعتناقها الإسلام وإيتاء الزكاة.

ولما بلغه أن الروم يعدّون جيشاً لغزو حدود العرب الشمالية لم يستأن أن يواجههم حتى يقضى فى نفوسهم على كل بادرة تسوّل لهم العدوان على العرب، واستنفر القبائل للجهاد وأمر السراة أن يشاركوا فى تجهيز الجيش وإعداده، وانتهب بعض المنافقين ومن يبغضون محمداً تلك الفرصة ليقعدوا بالناس عن القتال واجتمع منهم البعض فى دار سويلم اليهودى يخذلون الناس عن القتال ويثبطون همتهم، فأرسل إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه فحرق عليهم الدار فلم يجرءوا هم أو غيرهم على مثلها من بعد.

وخرج جيش العسرة كما سمى لما كان بالبلاد من جدب حينذاك ولما واجهه من عوائق الإعداد وقد تقدمه عشرة آلاف فارس تزدان بهم الأرض ويثور النقع من حولهم وصهيل الخيل يتردد صداه فى دور المدينة وجوانبها، والنساء يرتقين سطوح المنازل يمتعن البصر به وقد أخذ ينساب مخترقاً الصحراء نحو الشام، وهزت الصورة بعض المعذرين فتزودوا ولحقوا به وانطلق الجيش إلى تبوك، وعلم الروم من قوة جيش المسلمين ما حملهم على الانسحاب ولم ير محمد ما يحمله على تتبع الروم فى بلاد الشام فوقف عند تبوك يؤمن الحدود وصالح يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة وأهل الجرباء وأذرح على الجزية وقفل راجعاً إلى المدينة بعد أن ترك خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس اجتاح بهم دومة الجندل وحمل أميرها أسيراً إلى المدينة فأسلم وأصبح حليفاً

وبغزوة تبوك علت كلمة الإسلام فى كلّ الجزيرة العربية فأقبل من تخلّف من القبائل عن اعتناق الإسلام على اعتناقه، وكان منهم عدى أمير طيئ بن حاتم الطائى الذى سارت

بجوده وسخائه فى بلاد العرب مدائح الشعراء، وكانت قبائل طيئ قد تباطأت فى اعتناق الإسلام فأرسل إليها النبى علياً فى سرية لهدم أصنامهم وهرب عدىّ إلى الشام ولكن أخته وقعت بين السبايافمنّ عليها محمد وهى ابنه حاتم الطائى أجود العرب وأطلق سراحها وردّها هى ومن معها إلى أخيها بالشام وزوّدها بنفقة عظيمة، فهزّت تلك المأثرة عدياً فأقبل إلى المدينة وارتمى تحت أقدام النبى معلناً إسلامه وعاد إلى قومه ودعاهم إلى نبذ الأوثان فأسلموا وحسن إسلامهم .

وممن اعتنق الإسلام حينذاك كعب بن زهير أشهر شعراء بنى مزينة وكان المسلمون قد أهدروا دمه لتحريضه العرب على قتال المسلمين، فقد جاء إلى المدينة سرًا وعرف النبى وقد اجتمع إليه الناس يستمعون فى خشوع، فجلس إليه وقال: « يارسول الله : إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله : نعم، قال : أنا يارسول الله كعب بن زهير. فقام إليه بعض صحابته يستأذن فى ضرب عنقه، فقال النبى : « دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً. واستأذن كعب النبى فى إلقاء قصيدته، فلما جاء إلى البيت

إن الرسول لنور يستضاء بـه وصارم من سيوف الله مسلول

خلع النبى عليه بردته، وهى البردة التى باعها أهله إلى معاوية بأربعين ألف درهم ثم انتقلت من أيدى الأمويين إلى العباسيين فخلفاء بنى عثمان.

وكان انتشار العقيدة على تلك الصورة بكل ما حملت من قيم ومثل وشرائع بداية قيام مجتمع جديد كما كانت إدارة النبى لهذا المجتمع فى السلم والحرب وحرصه على وحدته القومية، وهى قومية إسلامية وإن قامت على أكتاف العرب أساساً لقيام تنظيم سياسى وبشيراً بمولد دولة جديدة لها كل مقومات الدولة الأساسية، فقد ظهرت الجماعة الإسلامية الأولى فى يثرب وكأنها جماعة سياسية تمارس كل خصائص الدولة وإن لم يرد على لسان أو يأت ذكر فى الشريعة يشير إلى أن الإسلام دين ودولة بل كان الرسول حريصاً على أن يفصل بين الإثنين وكان يباشر سلطانه الزمنى كقائد للجماعة ويباشر سلطانه الدينى كنبى مرسل يأتيه الوحى من عند الله، ولم يترك ما يمكن أن يكون وصيةً بقيام نظام معين للدولة وإن اشتملت الشريعة وحوت السنة كلّ ما يكوّن نظريةً سياسيةً وكل ما يمكن أن يكون أساساً لنوع الدولة وسياستها فى الداخل وفى الخارج، بل إننا لنستطيع الجزم بأن الشريعة الإسلامية تتضمن أقوم ما يمكن أن تساس به دولة فى كل زمان ومكان على أساس من توفير الحياة وإعلاء كرامة الإنسان .

(ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)[٥]. (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم)[٦] !

وما أن أحس عليه الصلاة والسلام أن رسالته قد تمت حتى أراد لها أن تكتمل على ما أراد الله لها ليقوم المجتمع الإسلامى خالصاً من كل شوائب الشرك، وليكون لهذه الجماعة الإسلامية وهى تتحول إلى جماعة سياسية كيانها المتماثل المتسق فلا يبقى فيها بعدئذ مشرك أو ضال ولا تبقى فيها نأمة من رجس أو شرك تمزق كيان المجتمع وتحطم وحدته المعنوية والنفسية فضلاً عن وحدته السياسية والقومية، وإذن فليصد كل مشرك عن الكعبة من بعد فلا يكون لهم حجّ إليها بعد أن طهرت من الشرك ومحيت منها كل معالم الوثنية؛ ولهذا نزلت الآيات من سورة التوبة، وكان موسم الحج قد بدأ وأخذت وفود المشركين تفد إلى مكة تقضى مناسك حجها، ولم يكن النبى قد أدى فريضة الحج على تمامها بعد، ولم يرد أن يؤدّيها وهناك مشرك يطوف بالكعبة، وليخرج أبو بكر بالمسلمين حاجًّا، وليعلم المشركون أمر الله بصدّهم من الكعبة ونقض كل عهد بينهم وبين المسلمين إلاّ من عهد عقد لأجل فإنه يبقى إلى أجله، وليلحق على بن أبى طالب بأبى بكر كى يخطب الناس يوم الحج بما أمر الله ورسوله، فلما وقف الناس بمنى يؤدّون مناسك حجهم وقف على بن أبى طالب وإلى جانبه أبو هريرة ونادى فيهم يتلو قوله تعالى (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجِّ الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم . إلاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم إنّ الله يحبّ المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إنّ الله غفورٌ رحيم . وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام الله ثمّ أبلغه مأمنه ذلك بأنّهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلاّ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنّ الله يحبّ المتّقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمّة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدّوا عن سبيله إنّهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة وأولئك هم

---

(٥) الإسراء: ٧٠. (٦) التين: ٤.

المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصّل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنّهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أوّل مرّة أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليمٌ حكيمٌ . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خبيرٌ بما تعملون . ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلّا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشّرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنّات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إنّ الله عنده أجرٌ عظيم . يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربّصوا حتّى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين . لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم ولّيتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفورٌ رحيمٌ . يا أيّها الذين آمنوا إنّما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إنّ الله عليمٌ حكيمٌ . قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون . اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو سبحانه عمّا يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل

رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . يأيّها الذين آمنو إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون . إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعةٌ حرمٌ ذلك الدين القيّم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم وقاتلوا المشركين كافّةً كما يقاتلونكم كافّةً واعلموا أنّ الله مع المتّقين[٧]).

وما أن أتم علىّ التلاوة حتى صاح بعد هنيهة بالناس : « أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ». ويقول هيكل فى « حياة محمد » «ومن يومئذ لم يحج مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ومن يومئذ وضع الأساس الذى تقوم عليه الدولة الإسلامية ».

ويعنى هذا أن الدولة حين تقوم تؤكد بقيامها حماية تقاليد المجتمع وعقيدته، فليس لطائفة أو جماعة من رعاياها أن تمارس ما يخالف الأساس المعنوى الذى تقوم عليه الدولة، كما أنه ليس من حق أحد من الرعايا أن يجترئ على كيانها المادى القائم على حماية القانون ، فالدولة تسن قوانينها لحماية العقيدة التى تدين بها والتى تعكس آثارها على نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصادى، وعلى العقيدة والنظم المادية التى تعكسها يقوم الكيان العام للدولة، وفيه يتسق إطارها السياسى.

وتمت كلمة الله وتأهب النبى للحج الأكبر، وتحرك الركب العظيم قاصداً مكة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة أربعة عشر ومائة ألف فى قول، وتسعون ألفا فى قول آخر تتجاوب البطاح بتكبيرهم خفافاً إلى البيت الحرام، حتى كان الثامن من ذى الحجة يوم التروية قصد النبى منى، فضرب خيامه بها وصلى فروض يومه وقضى ليلته حتى فجر يوم الحج فصلى الفجر وركب ناقته القصواء ويمم نحو عرفات حين أطلت الشمس من خدرها والناس من ورائه فارتقى الجبل والمسلمون من حوله يتبعونه فى مسيرته بين ملبّ ومكبّر حتى نزل بنمرة حيث ضربت قبته كما أمر إلى زوال الشمس، ثم نزل إلى بطن الوادى وما يزال فوق القصواء ونادى فى الناس بصوت جهورى كان يردده من بعده بين كل وقفة وأخرى ربيعة بن أمية بن خلف فحمد الله وأثنى عليه وقال :

---

(٧) التوبة. ١ - ٣٦.

« أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ».

« أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ».

« وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم فى الجاهلية موضوع ، وأن أوّل دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ».

« أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم » .

« أيها الناس، إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله ».

« وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان ».

« أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا ، ولكم عليهن ألّا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألّا يأتين بفاحشة مبينة فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ».

« فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبدا، كتاب الله وسنة رسوله ».

« أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلّا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم ».

« اللهم هل بلغت »

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام خاتمة قوله : « اللهم قد بلغت » أجاب الناس من كل صوب : نعم، فقال : « اللهم اشهد ».

ثم نزل عن القصواء وأقام فصلى الظهر والعصر ثم ركبها حتى بلغ الصخرات وتلا على الناس قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا).

وتمت بذلك كلمه الله واستقام المجتمع الجديد على مثل بينة من العقيدة والخلق ومن

السلوك والمعاملات، واتسعت كلمة الإسلام وآن لها أن تنساح لتسع الدنيا جميعاً.

وكانت إدارة المجتمع الجديد حتى ذلك الوقت مشيخيةً بسيطة، وكان على ولاة الأمر فى هذا المجتمع النامى أن يواجهوا ما ينجم عن اتساع حجم الجماعة من مطالب الإدراة والحكم، وكان لابدّ للدولة أن تتحول من إدارة مشيخية بسيطة إلى إدارة مركبة تتعدد فيها الأجهزة ويتشعب فيها الحكم.

ولعل الرسول قد واجه هذا التشعب فى حياته، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان يسوس الأمور ببساطة لا تستعصى معها مشكلة على الحل، فقد ترك كل شىء على ما هو عليه إلّا أن يقضى بين الناس بقضاء الإسلام وأن يكون الولاء للعقيدة ولاءً جامعاً فى رباط من الأخوة التى فرضها على المسلمين منذ البداية ويعنى هذا فى مفهوم الدولة وحدة الولاء للعلم أو للسيادة التى يمثلها، وكانت الشريعة الإسلامية هى مصدر السيادة وكان الولاء لها والدفاع عنها مصدر السلطة لمن يلى الحكم. وظلّ المصدر قائماً تستمد منه الخلافة الإسلامية سلطتها فى الحكم حتى بعد أن تحولت الخلافة من الجمهورية إلى الملكية فالخليفة هو أمير المؤمنين وهو حامى الشريعة وهو الداعى للجهاد وكانت الشريعة بالنسبة له دستوراً أعلى عليه أن يحميها ويدافع عنها وليس له على الإطلاق حق تعديلها أو تأويلها.

فإذا بعث بولاته إلى الجهات التى دانت بالإسلام فى الجزيرة العربية لم يكن عليهم إلّا أن يطهروا الناس من رجس الوثنية ويعلّموهم فرائض الدين وكان هؤلاء الولاة معلّمين أكثر منهم ولاة حكم، وكانت وصيته عليه الصلاة والسلام إليهم «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، وإنكم ستقومون على قوم من أهل الكتاب يسألونكم ما مفتاح الجنة فقولوا هو «شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

وإذا دعا إلى الجهاد فالدعوة للجميع دون إكراه إلّا إيمان الفرد بما يحارب فى سبيله بنفسه أو بماله، فليس هناك نظام للتجنيد وإنما هى العقيدة تدفع بأصحابها إلى خوض الغمرات دفاعاً عنها، فحين أراد قتال الروم دعا الناس للتطوع وأخذ يحضهم عليه، وقال قوم من المنافقين وكان الوقت قيظاً «لا تنفروا فى الحر» فنزل قوله تعالى: (وقالوا لا تنفروا فى الحرّ قل نار جهنّم أشدّ حرّا لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون)[٨].

ولما قال للجد بن قيس أحد بنى سلمة: ياجد، هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر؟ قال: يارسول الله؟ أو تأذن لى ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشدّ عجباً

---

(٨) التوبة: ٨١- ٨٢.

بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألّا أصبر، فأعرض عنه الرسول فنزلت فيه الآيه: (ومنهم من يقول ائذن لى ولاتفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين[٩]) وإن كان قد أخذ المثبطين بالشدة ولكنه لم يقسر أحداً منهم على القتال، إلّا أن يذكرهم بجزاء الدنيا والآخرة ويترك لهم بعد ذلك أن يختاروا بين الحسنيين.

وكان أبو خيثمة قد تخلف مؤثراً الراحة، فلما رأى الجيش على أهبته للمسير حركه هذا المشهد، فرجع إلى أهله فوجد امرأتين له قد رشت كل منهما عريشها وبردت له ماء وهيأت له طعاماً، قال: رسول الله فى الضح والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم، هيئالى زاداً حتى ألحق به، فهيأتا له ما أراد ولحق بالجيش، ولعل غيره من الخوالف قد فعلوا فعله.

ولم يكن هذا النظام غريباً على العرب، فالحرب عندهم تقوم على التطوع ولم يكن هناك نظام للتجنيد كما كان فى الدول المجاورة، وظل نظام التطوع قائماً على عهد النبى، ولكنه التطوع للجهاد مرضاة لله وليس التطوع ابتغاء المغنم أو السلب.

ومن المغالاة كما قلنا أن ندعى صفة الدولة لهذا المجتمع الإسلامى الناشىء سواء فى المدينة أو فى الجزيرة العربية بعد أن عمها الإسلام، وقد لا نرى صورة للدولة حتى بداية خلافة عمر وإنما نستطيع أن نرى تحول المجتمع الإسلامى إلى جماعة سياسية بل نستطيع أن نرى هذا التحول يغطى على ما سواه تماماً لتأخذ الدولة مكانها العسير فى حياة المجتمع والفرد وتبقى بعد ذلك هى كل شىء.

وبدأ هذا التحول نتيجة عاملين أولهما اتساع رقعة الإسلام اتساعاً بدت معه الحاجة ملحة إلى نوع من التنظيم الإدارى يكفل سلامة الحكم وسلامة هذه الرقعة الإسلامية. وثانيهما استيلاء الإسلام على دول وإيالات لها نظمها السياسة والإدارية العريقة كما فى فارس والولايات الرومية فى الشام وإفريقية.

وجاء هذا التحول نتيجة للفتوح الإسلامية الباهرة فى خلافة عمر حتى جاوزت هذه الفتوح بلاد الأفغان شرقاً وما بين النهرين شمالا وما وراء تونس من أفريقية الشمالية غرباً وحدود النوبة جنوباً، وأدت هذة الفتوح بالتالى إلى الاحتكاك بحضارات ونظم لم تعرفها الجزيرة العربية من قبل، بل نكاد نقول ان الاحتكاك كان عاماً شاملا بحضارات ذلك العصر وما قبل ذلك العصر من حضارات أديل منها إلى الحضارات القائمة كحضارة مصر والرافدين وهى حضارات سامية أصيلة غير الحضارات الآرية القائمة حينذاك وإن

---

(٩) التوبة: ٤٩.

كانت امتداداً للحضارات القديمة فإن العقل البشرى حين يبدع لا يبدع إلّا من خلال تراثه الماضى، فاحتكاك العقل العربى الفتى كان احتكاكاً بالحضارات القائمة وكان احتكاكاً بالماضى أيضاً وحضاراته العظيمة من خلال هذه الحضارات القائمة ومن خلال لتراث الإنسانى للعقلية السامية من قبل، وهو تراث بدت سماته قوية آخاذة فى الأديان السماوية وهى أديان سامية الموطن والنشأة.

وقد نخطئ إذا قلنا إنه احتكاك بين العقلية العربية السامية الأصل وبين العقلية الآرية فى فارس والهند وروما واليونان، فالعقلية العربية الجديدة كانت وليدة عوامل جديدة تأثرت بها أبلغ تأثير، بل إن هذا التأثير قد طبعها بطابع جديد هو الطابع الإسلامى خلقها خلقاً جديداً تختلف صورته اختلافاً بيّناً عما كانت عليه فى الماضى، فالاحتكاك الجديد إذن كان احتكاكاً بين الفكر الإسلامى الجديد والفكر القديم سامياً كان أو آرياً، وهو ككل احتكاك بين القديم والجديد لابد وأن يسفر عن غلبة أحدهما متأثراً بقوة هذا الصراع وحيويته وقدرة القديم على البقاء وقدرة الجديد على التفوق والتغلب، ولكنه صراع ينحسر فى النهاية عن لون من الحضارة غالباً ما يثبت فيه الجديد مشوباً بالأصيل من القديم.

وكان تفوق هذا الفكر الإسلامى الجديد قوياً إلى درجة بدأ فيها التحول جذرياً وعميقاً كان من آثارة موجة الاستعراب التى ابتلعت كل الشعوب التى امتدت إليها دوحة الإسلام، ولم يبق من القديم إلّا ما كانت الحضارة الجديدة فى حاجة إليه.

وبقدر ما كانت غلبة الفكر الجديد على القديم فى الحضارة الجديدة البازغة بقدر ما كان التنظيم السياسى والإدارى قاصراً عن الوفاء بحاجة الدولة فى اتساعها الجديد فإن العرب لم يعرفوا التنظيم السياسى للدولة كما عرفته فارس وروما ولم يلق المسلمون بالاً إلى الشكل الذى تكون عليه الدولة ولم يكن أمام العرب إلّا ترك البلاد المفتوحة على ما هى عليه فى نظامها الإدارى والمالى أو الاقتباس من هذا النظم بما يوافق الاتجاه الجديد.

ومست هذه الحاجة أول ما مست الدولة الناشئة على خلافة عمر إذ بدأ إطار الدولة يتكامل فى عهده نتيجة الأمتداد والتوسع والتركيب الاجتماعى الذى صارت إليه، وكان على عمر أن يوائم بين حاجة الدولة إلى تنظيم إدارى وبين روح الدين وجوهره، ولعله بلغ فى هذه المواءمة ما لم يبلغه حاكم من قبل ولا من بعد.

الأمة والدولة:

كان الانتشار الإسلامى يسبق خيال أولى الأمر وكان انسياح المسلمين فى الأرض يفوق تقدير عمر بن الخطاب الخليفة الذى قدر له أن يشهد هذا الانسياح الباهر فقد كان يحذره

ويخشى ألّا يقدر المسلمون عليه فيكون على انتشار الدعوة وامتدادها أكثر مما هو لها. فقد كانت سياسته كما يقول هيكل: «أن يجمع الجنس العربى فى وحدة تمتد من خليج عدن جنوباً إلى أقصى الشمال من بادية السماوة، وأن يدخل العراق والشام فى هذه الوحدة، لأن السلطان فيهما كان للخميين والغسانيين من العرب، فلما تم له ما أراد من ذلك ودّ لو يقف جنده فى هذه الحدود لا يتعدوها، وتمنى لو أن بينه وبين الفرس جبلا من نار لا يخلصون إليه ولا يخلص إليهم منه، ولو أن بينه وبين الروم سداً يحول بينهم وبين استرداد ما فتحه من أرضهم، لكن الحوادث كثيراً ما كانت أقوى من الرجال، والحوادث هى التى دفعت المسلمين إلى متابعة الفتح والبلوغ به إلى المدى الذى رأيت».

ولعل خشية عمر وحذره لم تتجاوزا تقدير رجل الدولة لخطر الانسياح البالغ مما قد يفوق جهد الدولة وقدرتها، فهى خشية المتأنى وحذر المتمهل الذى يعدّ للأمر عدّته قبل أن يقدم عليه، فإذا نسب إليه أنه قال: «لا تجعل بينى وبين المسلمين بحراً» فلأنه كان يدرك خطر البحر على العرب لأنهم لم يتمرسوا بلججه وغماره وأن خبرتهم بفنون البحر لا تعلو إلى خبرة غيرهم فيه، كما كان يدرك خطر الانسياح البالغ تماماً، وإن كان لا يعنى أبداً أن يعزل ما بين المسلمين والبلدان المجاورة، أو أن يقف بالانسياح العربى عند حدود الجنس العربى، فقد بعث الإسلام للناس كافة لا للعرب وحدهم، وبدأ الرسول قبيل وفاته يخاطب الأقيال والملوك فى تلك البلدان فى اعتناق الإسلام، كما بدأ يرسل بسراياه ومغازيه إلى تخوم فارس والروم.

وسواء أراد عمر هذا التوسع أم حذره وتأنّاه فقد دفعته الأحداث وحدها إليه، وبلغ الانسياح الإسلامى فى عهده إلى المدى الذى رأينا وإلى الصورة التى وقف أمامها المؤرخون مبهورين بجلاله وقدرته وقوته، ومهما قيل فى حماس المسلمين للفتح وإيمانهم بنشر الرسالة فستبقى الفتوح العربية الباهرة فى صدر الإسلام معجزة التاريخ وحقيقته البلجاء.

وقد أدّى هذا التوسع إلى النظر فى أمور هذه الدولة الناشئة التى تتأكد حقيقتها يوماً بعد الآخر مما حمل أولى الأمر فيها إلى تنظيم أمورها، وقبل ذلك إلى تنظيم مركز القوة الدافعة لهذا التوسع والنمو، ولم يكن هذا النظر وليد تفكير سابق أو دراسة مقننة قصد بها ولى الأمر مواجهة المستقبل فلم يكن المستقبل معروفاً أو مقدراً، وإنما جاء وليد الساعة ووليد الحاجة إليه، فحين أقبلت الوفود على النبى تعلن إسلامها وولاءها وبعث معها من يفقه الناس فى الدين ويجمع منهم الصدقات، ترك أمراء الجهات التى انطوت تحت الإسلام على ما كانوا عليه من سلطان قبل إسلامهم، على أن يدخلوا عليه ما تقضى به الشريعة من الفروض والمعاملات، ولم تتغير هذه القاعدة على عهد الخلفاء الراشدين إلّا بقدر ما اقتضاه الشكل

من تغيير فقد تركت البلاد المفتوحة على ما كانت عليه إلّا ما قضت به الشريعة من تعاليم.

إلّا أن التغيير الكبير الذى حدث حينذاك وبدأ مجراه على عهد الرسول أن قومية جديدةً قد بزغت شمسها وأن أمةً موحدةً قد ظهرت إلى الوجود برسالة جديدة للحضارة الإنسانية وبنمط جديد للحياة الاجتماعية والأخلاقية.

الأمة الإسلامية:

وإذا قلنا إن قومية جديدة قد بزغت شمسها فلا نعنى أن الإسلام قد تشيع للقومية أساساً للاجتماع الإنسانى فالإسلام لم يفرق بين معتنقيه ولم يقم حواجز أو سدوداً بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وعناصرهم وأوطانهم فأمة الإسلام أمة واحدة ووطن المسلمين كل لا يتجزأ.

وقد نقول إن أمة جديدة قد تكونت ولكن الأمة كانت موجودة وقائمة فعلاً، وكل ما حدث أن هذه الأمة كانت تعيش نظاماً قبلياً لا تربطه وحدة ولكنها فى ظل الإسلام بدأت تمتزج وتتوحد وتدين بالولاء لسلطة مركزية أعلى من السلطة المشيخية التى كانت تدين لها بالولاء وبهذه الوحدة بدأت كيانها القومى الذى اتسمت به من بعد.

ولكن هذه القومية الناشئة تكونت فى ظل الإسلام، فالإسلام هو الذى وحد الأمة العربية فى دولة لها كيانها السياسى والإسلام هو الذى حمل العرب إلى بقاع جديدة استعربت وأصبحت جزءاً من وطن العروبة، والإسلام هو الذى صاغ الإطار الفكرى والعقلى للحضارة العربية، والدولة العربية هى الدولة التى قامت فى رحاب الإسلام، إلا أن الإسلام لا يعترف بأية فروق قومية بين المسلمين، فالمسلمون جميعاً أمة واحدةولا فرق بين عربى وعجمى وليس لعربى على عجمى فضل إلّا بالتقوى ، والدولة التى قامت دولة إسلامية وإن قامت على أكتاف العرب ولعل هذا هو ما جعل للعرب ميزة السيادة فى الدولة الجديدة فهم السابقون إلى الإسلام، وهم الذين حملوا أعلام الإسلام الباهرة إلى كافة البقاع إلّا أن هذه الميزة لم تبق طويلاً فما لبث العباسيون أن اعتزوا بالفرس على العرب حتى أصبحوا سادة الدولة الجديدة فلما نكبهم الرشيد اعتز الخلفاء من بعده بمرتزقة العناصر التركية التى احترفت الجندية ولكن مصدر السيادة والسلطة ظلّ عربيا خالصاً حتى أديل من العباسيين إلى العثمانيين فأصبحت لهم السيادة والسلطة فى الدولة الإسلامية، ولم يجد العرب عناءً فى تقبل التغيير الجديد ما دام الحكام الجدد مسلمين.

فالقومية العربية قد شبت وتكونت فى إطار إسلامى خالص ولكن الأمة العربية ظلت

بينة الملامح واضحة القسمات وسط هذا الإطار وظل الطابع العربى الذى حكم الدولة الإسلامية منذ البداية غالباً حتى النهاية لنفس الأسباب التى طبعت العروبة بالإسلام ، فالإسلام على الرغم من عموم الرسالة وأنها للناس كافة بعث عربياً وبلسان عربى مبين فإذا كانت الدولة إسلامية فإن الأمة العربية بقيت أبرز ما يميز هذا الإطار الإسلامى العام فاللغة العربية وهى لغة القرآن لغة العبادات وهى لغة الدولة الرسمية بعد أن عربت الدواوين وضربت النقود العربية فى عهد عبد الملك بن مروان فاتسمت الحياة والحضارة فى هذا المجتمع الإسلامى بالطابع العربى الغالب وظل هذا الطابع العربى وإن تأثر بما حوله متميزاً حتى غدا وله سماته الخاصة .

ولم تكن الوحدة القومية التى عمت بلاد العرب ظاهرةً سياسيةً بقدر ما كانت ظاهرةً اجتماعيةً فلم يكن الولاء السياسى للدولة أو للسلطة المركزية هو الذى وحد العرب تحت راية واحدة، وإنما الذى وحّدهم هو إيمانهم جميعاً بمثل أعلى مشترك وخضوعهم لأحكام متشابهة وسلوكهم مسلكاً واحداً فمنذ أسلم العرب تمت وحدتهم الدينية وجمعتهم العقيدة الجديدة على عادات ومعاملات واحدة ، وحين تزول الفوارق فى حياة المجتمع يزول مابينها من عوائق وحدود اجتماعية، وحين يتفق المثل الأعلى للأمة مع غايتها فى الحياةتتم وحدتها الفكرية ويزول عنها كل تناقض يمكن أن يثلمها أو يعوق ائتلافها.

ومما أدّى إلى تعميق مشاعر الوحدة بين العرب أنها تمت على يد الدولة الناشئة، بل إن هذه الدولة الناشئة قامت أصلاً على أكتاف العرب وهم الذين وسعوا رقعتها لتشمل ما يعرف بعالم الإسلام حينذاك إذ كان عالم الإسلام فى ذلك الوقت لا يتجاوز إطار الدولة ولا يتعدى حدودها فلم يكن الإسلام قد انتشر انتشاره فيما بعد حتى تجاوز حدود الدولة فأصبح من بلاد الإسلام ما لا يقع فى سلطان الحكم الإسلامى أو يدين بولاء سياسى للدولة الإسلامية وإن ربط الولاء الدينى المسلمين فى عالم الإسلام برباط لا تنفصم عراه.

وعلينا أن نؤكد دواماً أن الوحدة الروحية أو الدينية للعرب قد تمت قبل أن تتم وحدتهم القومية أو تتكامل، فقد ظل النظام السياسى القديم للجزيرة العربية قائماً فى عهد الرسول وبعد اعتناق العرب للإسلام على ما كان عليه، ولم يتغير كثيراً عما كان عليه من قبل وإن كان النظام الاجتماعى قد تغير تماماً مما أدى إلى التآلف القومى ثم إلى الوحدة القومية من بعد .

ولم تكن حروب الردّة لإقرار الوحدة السياسية للعرب بقدر ما كانت إقراراً للتعاليم الدينية، وبالتالى إقراراً للوحدة الاجتماعية، فقد كان الدين ومازال الرباط الأقوى فى وحدة المسلمين الاجتماعية من بعد ووحدة المجتمع العربى من قبل، بل إن هذه الوحدة

الاجتماعية كانت ومازالت الأساس الأول للمجتمع الإسلامى .

وفى حرص عمر على إقرار هذه الوحدة عمل على إجلاء اليهود والنصارى عن شبه الجزيرة العربية لتكون خالصة للمسلمين، وليكون مهد الإسلام خالصاً من كل شائبة تعوق وحدته الاجتماعية، وحين أجلاهم لم يقصد بهم شرًا فقد أمر بنصارى نجران ألّا يفتنوا عن دينهم وألّا يخرج منهم إلّا من أقام على نصرانيته، وأن يعطوا بالعراق أرضاً كأرضهم بنجران وأن تحسن معاملتهم، وكانوا قد كثروا فخافهم على الإسلام كما ذكر البلاذرى ، فإذا عرفنا أنه أجلاهم إلى أرض إسلامية فى العراق لأدركنا أنه لم يكن يخشاهم على الإسلام بقدر ما كان يخشاهم على موئل الإسلام ووحدة العرب الاجتماعية فى شبة الجزيرة، وهكذا فعل بمن بقى من يهود خيبر وفدك إذ أجلاهم إلى الشام وعوضهم عن أرضهم بما يعدل قيمتها وأحسن ، ولعله استند فى إجلاء النصارى واليهود بإجماع المؤرخين إلى ما روى عن رسول الله أنه قال: «لا يجتمع ببلاد العرب دينان». والدين مصدر هذه الوحدة الاجتماعية الجديدة ودعامتها .

ولتثبيت هذه الوحدة أمر برفع ما فرضه أبو بكر على أهل الردّة ألّا يحاربوا فى صفوف المسلمين، كما أمر بردّ السبى من العرب إلى عشائرهم حتى لا يكون السبى سنّةً فى العرب وحتى لا تكون تفرقة بينهم تشعرهم بالتمايز وأن للبعض حقوقاً ليست للآخرين.

ولم يسر هذا الأمر على البلاد العربية خارج شبة الجزيرة فى الشام والعراق فقد أراد لمهد الإسلام أن يقوم بهذا الأمر وحده حتى يبقى خالصاً من أية شائبة قد تعوق توافقه الدينى واتساقه الاجتماعى، فسرعان ما امتد الإسلام إلى الشام والعراق ونزحت قبائل عربية بأجمعها إليهما، ولكن بقيت الجزيرة العربية وحدها خالصةً للعرب المسلمين وظلت تلك القاعدة عرفاً سائداً حتى اليوم وإن بدأ يهتز أخيراً أمام الخبرة النازحة .

وبامتداد الفتوح الإسلامية انتشر الإسلام فى بقاع جديدة وبين أقوام لا ينتمون إلى الأمة العربية برباط ثقافى أو جنسى كما فى فارس والهند وشمال أفريقية والأندلس ونفذ الإسلام إلى هؤلاء الأقوام بنفس القوة التى نفذ بها إلى الأقوام العربية أو التى تنتسب إلى الأمة العربية كما فى العراق والشام ومصر ، ومن هذه البقاع التى طوتها موجة الفتوح الإسلامية تكونت الدولة الإسلامية.

إلا أن الإسلام انتشر فى أزمنة متفاوتة عن طريق الدعوة إلى بقاع لم تنطو تحت لواء الدولة الإسلامية، ولم تكن جزءاً منها، وكان هؤلاء بدورهم ممن ينتمون إلى الأمة الإسلامية ويدينون بالإخاء الإسلامى وهو رباط المسلمين الأكبر فى مشارق الأرض ومغاربها، ونستطيع أن نقول وفقاً للمصطلح الحديث إنه دعامة ما يمكن أن يعرف بالقومية الإسلامية على

أساس أن الإسلام قد جبّ كل تمايز يقوم على العنصر أو اللون أو الانتماء إلى وطن معين إلّا وطن الإسلام، وأنه وفقًا لهذا لا يقبل النزعة القومية الحديثة، وهى النزعة التى قادت إلى الحروب الدامية فى القرنين التاسع عشر والعشرين وبالتالى لا يدين بالقومية أو بأية نزعة قومية تنسب إليه .

فإذا قلنا القومية الإسلامية فمن قبيل التجاوز إذ يعنى أننا نسلم بأن الإسلام فى الوقت الذى ينكر فيه النزعة القومية يدعو إلى قومية معينة وهو ما ينكره الإسلام وينتزه عنه، فالإسلام دين الناس كافة : (إن هو إلّا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين)[١٠] بعث به محمد للعالمين وللبشر جميعاً على حدّ سواء .

(وما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين)[١١]

(تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)[١٢].

(وما أرسلناك إلّا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون)[١٣].

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون)[١٤].

وتفيد هذه الآيات البينات أن محمداً بعث ليوحد البشرية جمعاء فى دين واحد هو الإسلام، ويرى « توماس أرنولد » مصداق ذلك فى نبوءة محمد بأن بلال « أول ثمار الحبشة » وأن صهيبا « أول ثمار الروم » .

ولم تقف الدعوة على الجزيرة العربية فما ان رسخ قدم الإسلام فى شبة الجزيرة حتى بعث النبى فى السنة السادسة من الهجرة برسله إلى أقيال ذلك العصر وملوكه فدعا قيصر الروم وكسرى فارس ونجاشى الحبشة وعامل اليمن والمقوقس فى مصر إلى الإسلام.

فإذا كانت الدعوة لعبادة إله واحد أحد لا شريك له فإن الناس جميعاً يجب أن يكونوا على هذا الدين، وإذاكان هذا الدين لم ينكر ما قبله من رسالات السماء فمعنى ذلك أنه استوعب ما قبله وحق على من كان على هذه الأديان أن يعتنق الإسلام إذ جاء مصدقاً لها مؤكداً أنها من الإسلام :

« ويؤيد دعوى عموم الرسالة - كما يقول توماس أرنولد - والحق فى أن يستجيب لها البشر عامة، أن الإسلام كان الدين السماوى الذى اختاره الله للناس كافةً أوحى به إلى الرسل من قبل ثم أوحى به من جديد على لسان محمد خاتم الأنبياء ».

---

(١٠) سورة ص : ٨٧- ٨٨.
(١١) الأنبياء : ١٠٧.
(١٢) الفرقان : ١.
(١٣) سبأ : ٢٨.
(١٤) التوبة : ٣٣.

وإن عالمية الإسلام هذه لتنفى أية نزعة للقومية، فإذا قيل القومية الإسلامية فهو من باب التجاوز تمييزا لها عن غيرها ما دامت دعوة الإسلام لم تتم بعد ولم تتوحد البشرية فى ديانة واحدة، وهى الديانة التى يقول فيها «توماس أرنولد» أنها وحى الرسل من قبل ثم أوحى بها إلى محمد فختم بها رسالة السماء.

وقد يتناقض هذا وما اختص به الله العرب بالرسالة ونزول القرآن بلغتهم:

(إنّا جعلناه قرآناً عربيا لعلّكم تعقلون)[١٥].

(وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيّا لتنذر أمّ القرى ومن حولها)[١٦].

(وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربيٍّ مبين)[١٧].

(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كلّ مثل لعلّهم يتذكّرون. قرآناً عربيا غير ذى عوج لعلّهم يتقون)[١٨].

(فإنما يسّرناه بلسانك لتبشّر به المتّقين وتنذر به قوماً لدًّا)[١٩].

ولكن إذ اختار الله الإسلام ديناً للعالمين وإنه دين من سبق من الرسل ختمه على لسان محمد، فقد اختار العربية لتكون لغة الإسلام وليكون الناس فى ظل الإسلام أمة واحدة.

(وما كان الناس إلاّ أمّةً واحدةً، فاختلفوا ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون)[٢٠].

(كان الناس أمّةً واحدةً، فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)[٢١].

فليس الإسلام قاصراً على العرب، والقرآن هو كتاب الإسلام ووحيه الإلهى، وهو كتاب كل مسلم، يحفظه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها سواء تكلموا العربية أو تكلموا بغيرها، وهو الذى صان اللغة العربية وأبقى عليها كأقدم لغة حية حتى الآن، فإذا كانت معاصراتها من اللغات القديمة كاللاتينية واليونانية والسريانية والآرمية قد بادت، فقد بقيت اللغة العربية قائمةً حيةً بفضل القرآن وكان بقاؤها بقاءً للأمة العربية وإلاّ لحقها ما لحق

---

(١٥) الزخرف: ٣.
(١٦) الشورى: ٧.
(١٧) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥.
(١٨) الزمر: ٢٧- ٢٨.
(١٩) مريم: ٩٧.
(٢٠) يونس: ١٩.
(٢١) البقرة: ٢١٣.

بالأمم التى تشعبت لغاتها الأصلية فافترقت شعوباً عديدة لكل منها لغته المتميزة التى انبثقت من لهجتها الدارجة .

ويوم ينتشر الإسلام ليعم العالم كما هى رسالة رب العالمين فستعم اللغة العربية لتكون لغة العالمين .

والأمة الإسلامية هى الأمة التى ينتمى إليها كل من اعتنق الإسلام ومن يعتنقه من بعد، وليس أمامها قيود أو حدود تقف دون انتشارها أو امتدادها، والمسلم أخ للمسلم فى كل صقع وفى كل قبيل وإن لم تضمهما دولة واحدة أو يجمعهما حكم واحد .

الدولة الإسلامية :

وقامت الدولة الإسلامية عربيةً منذ البداية، إذ قامت على أكتاف العرب، وظلت إسلامية عربيةً حتى بعد أن أديل من الحكام العرب إلى غيرهم، وحتى بعد أن انتقلت الخلافة من العرب إلى العثمانيين، فقبل أن يتكون المجتمع السياسى ويكتمل الكيان العام للدولة كانت العلاقات الحتمية فى المجتمع والقوانين التى تحكمه وتشكل سلوكه العام إسلاميةً صادرةً عن الشريعة وتعاليم الإسلام، وهى علاقات أو قوانين غيرت من طبيعة المجتمع وكان التغيير تلقائياً لا يحكمه عنت أو إرهاق أو نوع من أنواع الجبر فقد أقبل الناس على الإسلام راضين دون إكراه، وآمنوا به إيماناً حملهم على الولاء لرسالة المجتمع الإسلامى ولاءً هانت معه التضحية بالنفس والمال وكانت رسالة المجتمع الجديد أن يدعو للعقيدة فى الخافقين ويحمى حرية الدعوة من أى عدوان .

فإذا كان العرب هم الذين قاموا بالدعوة وامتشقوا السيف لحمايتها، فقد غدوا قادة المجتمع الإسلامى، وحين تكونت الدولة آلت إليهم السلطة وأصبحوا سادة الحكم الجديد، لذلك قامت دولة إسلامية تحكمها العلاقات الجديدة للمجتمع الإسلامى ولكن على يد العرب وعلى أكتافهم، فهى دولة عربية من حيث تكوينها البيلوجى وإسلامية من حيث طبيعتها البشرية .

وكان هناك نوع من الإدارة لهذا المجتمع الإسلامى على عهد النبى وكانت إدارة مشيخية أو أبوية وظلّ هذا الطابع المشيخى قائماً على عهد الشيخين الأوّلين أبى بكر وعمر، ثم كان انسياح العرب فى أقطار جديدة ورأى عمر أنه أمام واقع جديد تحكمه حتمية ديجرافية كما تحكمه حتمية جغرافية أو إقليمية، فانتشار الإسلام بين أقوام آخرين من غير العرب وانسياحه فى أقطار غير عربية، مع ما لأولئك الأقوام وتلك الأقطار من نظم وحضارات

قديمة وخصائص مختلفة، وبقاء أناس من تلك الأقوام على دياناتهم القديمة، إذ لم يجبر الفاتح العربى أحداً على دخول الإسلام، كل هذا جعل عمر يواجه أموراً جديدة عليه وأوضاعاً لم يألفها فى الجزيرة العربية، ولم تتناولها الشريعة أو السنة بتفصيل، وكان عليه أن يصدر فيها برأى تنتظم عليه هذه الدولة الناشئة، وقد بلغت من سرعة الانسياح واتساعه ما لايدع وقتاً لوضع نظام أو تشريع يحكمها، وأن يستند هذا الرأى إلى بديهة ولىّ الأمر أو الحاكم أكثر مما يستند إلى منطقه أو تقنين جماعة تقوم به، وأن يساير هذا الرأى التوسع الإسلامى فى أطواره لا يسبقها ولا يستأخر عنها كما يقول هيكل فى سيرة «الفاروق عمر».

وما كان عمر بن الخطاب «ليضعف - كما يقول هيكل - فقد كان له من قوة الشخصية وبروزها... ما كان له أثره البين قبل الإسلام وبعده» فواجه الأمر بحكمة وأصالة وواءم بين الدين والدنيا بقدرة لم يعرفها التاريخ من قبل ولا من بعد، بل إن شخصية عمر لتنفرد وحدها فى التاريخ فليس له بين حكام الدول وقادتها مثيل أو نظير وقد شغل أبو بكر خلال خلافته الوجيزة بحروب الردّة وبتسيير الجيوش إلى العراق والشام ولم تكن معالم الدولة الناشئة قد برزت أو وضحت بعد، فلما تولى عمر الخلافة بدأت هذه المعالم تتضح وتبرز فقد وسعت الدولة فى عهده العراق وفارس والشام ومصر واستقرت كلمة الفتح فيها وأصبح على عمر أن يضع النظام الذى يحكم هذه الأمصار ويسوسها فى إطار الوحدة المنشودة للدولة الإسلامية وبما يتفق وتعاليم الإسلام وظروف كل مصر وتاريخه.

وقد نهض عمر بكل هذا فأرسى قواعد الدولة ووضع تقاليد الحكم وعلى يديه قامت الدولة الإسلامية، واكتملت حقاً، وكان فريداً فى كل ما قام به، وكان حقاً كما قال فيه النبى عليه الصلاة والسلام: «لم أر عبقرياً يفرى فريه».

ولا تتجلى عبقريته فى النظام الذى وضعه لحكم الدولة ولا لسياسة الفتح، ولكن عبقريته الفذة فى أنه استطاع أن يجعل من روح الإسلام حقيقةً واقعة يسوس بها الحاكم نفسه ويسوس بها رعيته وترجم النظرية إلى واقع عملى فأقام دعائم الشورى وأرسى قواعد العدالة والمساواة، وجعل من الحق والواجب أساساً لحرية الفرد وحرية الجماعة.

كان يستهدى إيمانه ويقينه، كما يستهدى عبقريته وإلهامه، فبإيمانه أقام الحكم على شريعة الله وقهر فى نفسه كل نزعة تميزه على الناس وكان الحاكم والراعى، وكان الأب الحدب لرعيته مسلمين وذميين، وبعبقريته وإلهامه واجه النمو والتغير السريعين فى نشأة الدولة، فكان يضع خطة الحرب أو يشارك فى وضعها، فإذا تم فتح بلد وضع له سياسته وأشار بضروب الإصلاح فيه.

وحين هداه إيمانه ويقينه لم يجعل لنفسه حقاً على المحكومين إلّا بما فى كتاب الله وسنة نبيه، فقد اجتمعت له كل السلطات فكان المشرّع ، وكان المنفّذ والقاضى والقائد الأعلى للجيش، وليس عليه من سلطان إلّا سلطان الشريعة وهو راعيها وسلطان الحق وهو حاميه، وما عليه من رقيب غير مسئولية الضمير قبل الخالق والحق قبل العباد وبها ساس العباد كما ساس نفسه فكان يقول: «كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم» .

وفى عهده وضحت معالم الدولة وبرزت أركانها وظهرت بوادر التنظيم السياسى الذى احتواها وتطور معها إلى المدى الذى بلغته .